طموح العظماء

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الكتاب: طموح العظماء

اسم المؤلف: شوقي السيد

التدقيق اللغوي: منى الضايع

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ٢٢٠٧٤ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٣٣٤-٤-٣



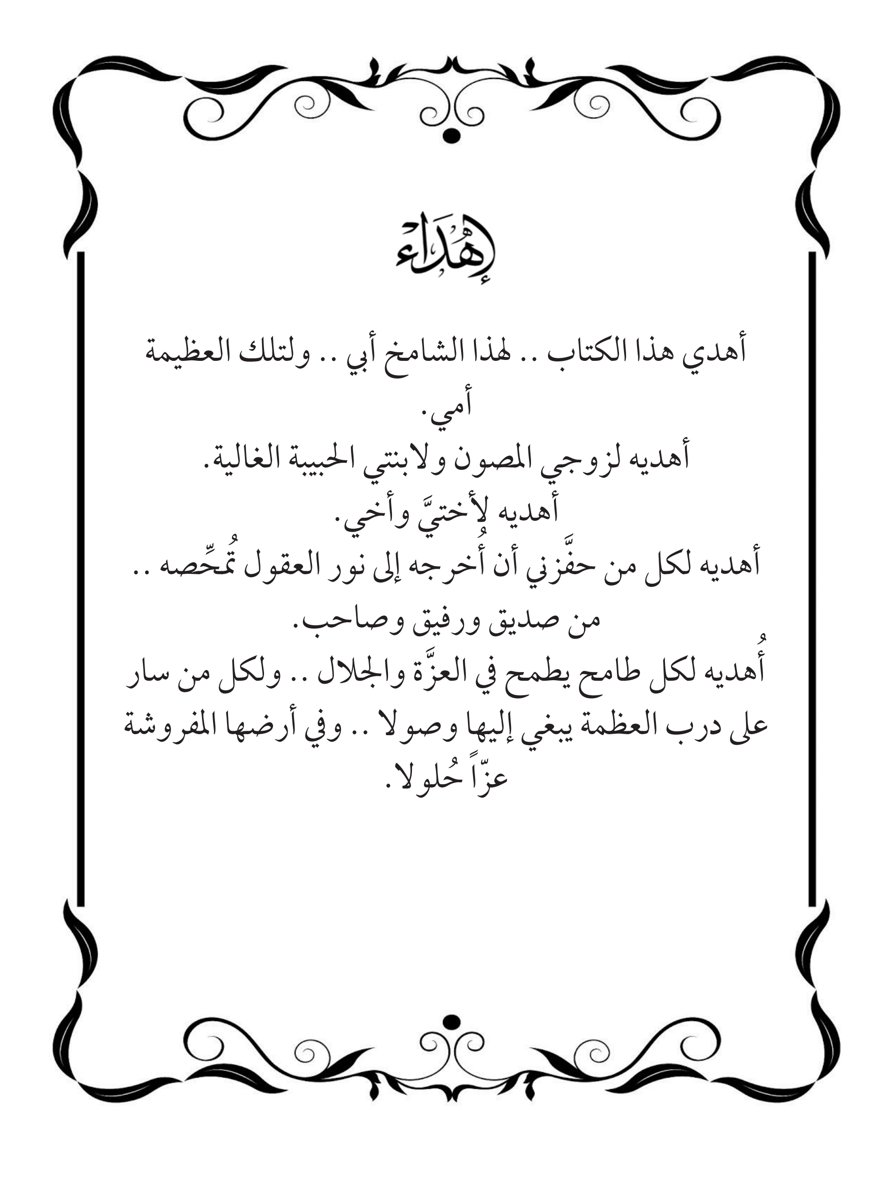
 ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية

 01020439639

 massar.pub1@gmail.com

طموح العظماء





إهداء

أهدي هذا الكتاب .. لهذا الشامخ أبي .. ولتلك العظيمة أمي.

أهديه لزوجي المصون ولابنتي الحبيبة الغالية.

أهديه لِأختيَّ وأخي.

أهديه لكل من حفَّزني أن أُخرجه إلى نور العقول تُمحِّصه .. من صديق ورفيق وصاحب.

أُهديه لكل طامح يطمح في العزَّة والجلال .. ولكل من سار على درب العظمة يبغي إليها وصولا .. وفي أرضها المفروشة عزّاً حُلولا.

أيها القارئ العزيز..

في هذا الكتاب الذي بين يديك.. تجد مزيجا من النماذج التي قرَّت بين قمتين سامقتين بين طموح يرمون إليه وعظمة تهيأت لهم بعد سعي وجد حثيثين.

فتجد حديثا عن البداية و ما تشمله " من أين .. وإلى أين ". وعن الطموح ما هو وكيف يكون وما هي مشتملاته والخطوات التي تنزع بالمريد إليه.

وفي هذا السِّفر أنت واجد.. أن العظمة الحقيقية إنما هي في رحاب الإسلام الذي يتواءم مع روح الإنسانية السامية العلياء. و كيف قسمت هذه العظمة إلى أنواع .. وأن أجلها مكاناً وأرفعها منزلاً تلك المكتسبة بالمعاناة و الكدح و الكدِّ لها ما قام هذا الجسد على روح.

وأنت واجد فيه التغير وكيف أنه يفارق التغيير في محاور عدَّة.

وفيه إنك واجد بإذن الله الروح التي تغذي طموحك وترقي عظمتك وتبعث نهارا في أرجاء حياتك ينتشر بضياءه ماحيا هذه الظلمة التي عمَّت وطمَّت وأنَّت تحت وطأتها النُّفوس أياما بل

أعواما.

لعلك أيها النِّبراس.. تخرج في ثوب قشيب بُعيد قراءتك له بتمعنٍ وتفحصٍ وتدبُّر.. لعلَّك.. وأودُّ ذلك لكً أن تكون صانعاً لعظمتًك .. باثًّاً رُوح العظمة في هذه النُّفوس التي كاد يلتهمها اليأس من الآتي ويبتلعها التسليم للعَياء والإخفاق.

لا تكن تافها و لا تعش سبَهللا.. بل كن راغبا بالعلياء و رامقا دُروب الكُبراء و محدِّجا نظرك قِبَل العُظماء.. و اصنع نفسك.. قدرا رفيعا و قيمة شريفة و مكاناً عليا. واسمح لنفسك أن تُولد من جديد فإنك إذ تسمح لذلك أن يكون.. فذلك باب لإبداع جديد أجلَّ و أسمى.

المقدمة

ماذا قدمت:

سؤال كثيرا ما خالج روحي وجال بخاطري، بل إنّه أكثر شيء تردد في نفسي، حتى أوقفني التأمل في مسيري، وقلت إلى أين؟

أسير منذ زمن بعيد، وأصنع أشياء، لكن هل بها من فائدة؟

هل من ورائها منفعة؟ هل في إتيانها جدوى؟

إن عقلي كاد ينفجر و رأسي يتحطم من جرَّاء هذه الأسئلة التي لا تنفك عن الطرح ليلَ نهار.

إلى أن آل بي الحال إلى أنه سؤال خبيث تقدمه النفس على سبيل التشجيع والمُمالأة في ظاهره، وفي باطنه تريد بصدق أن توقف العامل عن عمله والطامح عن مطمحه. ولكن لماذا؟

بحجة أنَّك لن تقدم شيئاً ذا بال، ولو قدَمت فلا أحد منتفعٌ به، وأنَك سترحل إلى العالم الآخر كما رحلَ مَن كان قبلك، فهل يا تُرى تركوا شيئا يستحق أن نُفني حياتنا في تدبره واستجدائنا الفائدة من

وراء هذه المعاناة ؟!

رأيتني أُجيب في حزم وقوة متفوها بكلماتٍ حاسمة حازمة.

فقلت: أيتها النفس... أما تريدين الرفعة؟

فقالت: نعم أريدها.

قلت: إذن فاعملي.

قالت: وما الفائدة من عملي؟

قلت لها: الناس على ضربين:

ضرب يعمل العمل ولا رَوم له به فهذا يؤول جهده إلى فشل ذريع وإخفاق شنيع، وضرب يعمل العمل ويريده بشغف فهذا يؤول جهده إلى نجاح باهر وتوفيق ناصع.

وإني قد أوقفت جهدك على ثانيهما حتى تُرين شجرةً مثمرة وزهرةً يانعة.

ها أنا ذا أوشكت على إتمام رُبع قرن على أرض هذه البسيطة، خضت هنا وهنالك أبحث عن ذاتي أين تُوجد؟

أفي عملٍ حِرفي أم في عملٍ مَوهبي؟ فوجدتها في الأخير.

فأخذت أُلملم شتاتها وأستجمع عزمها على إنماء الموهبة وإذكائها

وإدرار الخير من تَجمُّع فيضها حتى يُسقى من كُتب له السُقيا من خالص شرابها.

زهاءَ عقد من الزمان أسأل نفسي مكررا: ماذا أريد؟ إنَه سؤال.

ليس بالهين إن كنت تحسبه .. ولا بالصعيب عند الجواب.

وبقي لي أن أستفز قدراتك وأحفز إمكاناتك.

ماذا تريد؟

لعل هذا الكتاب هو أول عمل أقدِمه لجمهور رائع متيع، إذ إنَه جمهور الواعين الذين وهبوا أنفسهم للقراءة والتَّمعن في أجواءها من أجل إنفاع الآخرين وإمتاع عقولهم بلطيف المعرفة وشريف العلم، وتسلُّحهم في حاضرهم لمجابهة ما يرد إليهم من تثبيط الحمقى وإحباط النَّوكى المائرين، والتثبت لإحداث مستقبل مشرقٍ زاهٍ، وكان هذا الكتاب هو الحُلم الذي طالما رأيته أمام عينيَ يطوف في ثوب مزركش موشَّى بأجمل زينة وأرق حِلية، وكنت أردد دائبا متى أحمله بين يدي، أتـطلع حاشيته، وأقرأ ما بين دفتيه، وبفضل الله وحده تحقق الحلم وصرت أحمل كتابي بين كفيَ كما تحمل الأم وليدها، تحنو عليه وترنو إليه.

تبقى الأحلام دفينة ما دمت لا تحيها فإذا ما نهضت لها وفعلت ما يزكيها

قامت إليك عظيمة والروح تنطق فيها أحيا الإله عزيمتك ولذاتك ما يرضيها

أيها القارئ البارع أسكب إليك بعضا من رشفات العظماء الذين سيقوا إلى المجد بسياط الصبر، والمثابرة، والتحدي، والإصرار، حتى اعتادوا هذه الجلدات المبرِّحة، والضربات المقرِّحة، واللدغات المجرِّحة، فصارت لهم نفوسٌ عصية منيعة تهدف كل شَعَف، وتبصر كل مطمح سامق.

إن المرء منا قدم الحياة صارخا بآهات مدوية وعقيرة صارخة لدى انبعاثه من رحم أمه إلى عناء الحياة وكدِها يبحث عن سر الحياة التي لا تحلو إلا به، ولا تصفو إلا من مشربه، فأخذ يجول هنا وهنالك يحث السير تارة، ثم يتوانى أخرى، حتى ألفى أنَه على درب الإصابة، فزال عنه ما أضناه وأصابه..

من ألفى غيره، فقد دام في حيرة عذابه، وديمومة سرابه، فصار يعبد كل ما يعبد، وقد عال عن أصل محرابه.

فاللهم لك الحمد حمد عبد لم يبلغ لك من الحمد ذرة

ولا أدنى منها، ولك الشكر ما حِيا من نفس جائرةً على نفسها، حائفةً على نصيبها وقَسمها، ورغم ذلك تود أن تكون شاكرةً لربها ووليها، المقيم لها في ساح نعمته، المديم لها في فِناء رحمته.

إننا ولجنا هذه الدنيا منا من رضي بقَسمه فحيا سعيدا هانئا، ومنا من تسخط الأقدار فعاش تعيسا مكتئبا، وفي دروبها المذللة والوعرة خطونا بأقدامنا ساعين جيئة وذهابا، ندنو تارة من أهدافنا ومآربنا، فنكمل إليها، أو نرجع يائسين لما داهمنا من خطب عتي، ونازلة ملمة.

ينشأ الواحد منا بادئ نشأته طفلا وديعا، يلتقم ثديي أمه، يهدأ روعه برشفات من لبن الأمومة الحانية، ثم يكبر فيتطلع لما في يديَ غيره، يريد مثل ما معه أو أرقى منه، وإذا بمن تولَّى أمره يُلبِّي له ما سأله بقلب أبوي حنون، وبعاطفة رَحموية جياشة ما وجد إلى ذلك سبيلا.

وما يلبث إلا وهو يحتل مقعدا في العقد الأول من حياته في مدرسة يبتدئ فيها حياة علمية مدلَّلة، فيصحب هذا وذاك، يلهون ويلعبون ويمرحون ولا مساءلة عليهم، ترافقهم بسمات بريئة، وقسمات وجه نضيرة. ثم ينتقل بعدها في درج تعلمه إلى مرحلة أخرى أشد صعوبة من سابقتها.

وهكذا كلما تعمَّق المرء في أغوار حياته وتغلغل في أعماقها، زيدت عليه العناءاتُ والمكادح، وبات يبحث عن مخرج يُعيده إلى

سابق عهده من ارتفاع مساءلة، واطِّراح أثقال مُثقلة من على عاتقه، وهيهات هيهات.. لقد تبدلت حياة الترف والنعيم والدَّعة إلى حياة الكدِّ والتعب والنضال.

إن لسان حاله ينطق ليتني ظللت صغيرا مدلَّلا. وهيهات ما تمنَّى.

فها قد ترعرع الصبي وصار فتيًّا في ريعان شبابه وأوج قوته وفتوته، قويَ الشكيمة، عظيم البنية، فذَّ الإرادة، شديدَ المراس، بيد أن الأهوال من حوله تفاقمت لقاء ذلك، واشرأبت طمحات الدهر باديةً في حدة وقطيع.

من درجة لأخرى يترقى الإنسان في أعباء حياته وأهوالها، على مشارف زواجه إلى إنجاب أبناء فتكلفةِ عيش، وإحسان تربية، وتنقية لأنفسهم من أدران الحياة وأرجاسها.

وتعود الكرة إلى أصل مبدأها. هكذا الواحد منا يخرج من مطمح إلى مطمح إلى آخرِ ذلك من مطامح لا منتهى لها. يموت ويفنى ولم يدرك لها آخرا.

لكن دعونا نتساءل. المرء منا ليس موحَّدا في طموحه، أليس كذلك؟

وليس متفردا بهدف واحد في كل مجالات حياته، أليس كذلك؟

بلى إن الطموح دائم المناسبة مع الفترات الحياتية والمراحل العمرية للفرد.. فها هو تراه في طفولته البريئة يتمثَّل طموحه في لعبة يلعب بها ويلهو، ثم يترقى إلى منزلة أعلى قليلا فيرغب هاتفا يجوب بجولانه أصقاع الأرض وضواحيها، ثم يترقى ويترقى، وذاك هو الدأب الذي تعلنه الفطرة ويفصح عنه النظر.

إذن فالإنسان لا يكفيه طموحٌ واحد، بل إنه يستهين في كل مرحلة بطموحه الذي حقَّق قبل ذلك.

وتلك الطائفة من الأماني في طلب المعالي، يعبر عنها تعبيرا صادقا قول الشاعر:

مالي أراني إذا طالبت مرتبةً فنلتها طمِحت عيني إلى رتب.

وهذا دأب العظماء وديدنهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى عظمة الإنسان وفطرته السوية، لولا أن تطرأ عليها غبرة الحياة المُعمية، وتلك الطموحات تكون إما لفترة محدودة، أو لمصير دائم

أما تلك التي سبق الحديث عنها ففتريه، أما المصيرية فهي التي يدور على رحاها هذا الكتاب، ويلتف حول رِحابها الواسعة.. أن يحيا الإنسان حياة تدوم أبدا لا انقطاع لها إلا بفَناء الدنيا و زوالها.

هذا المصير من أخطر ما يكون في مسير الإنسانية ففي مرحلة ما ليس بالأمر الهين أن يُحدِّد المرء مصيره، وليس باليسير أن يصل إلى هذا الهدف الذي حدَّده ورمى إليه طُموحه، وفي هذه الصفحات من هذا الكتاب الذي أرجو الله عز وجل أن يتقبله خالصا لوجهه الكريم، مدليا إلى مرضاته، وأن يفيد به أبناء هذه الأمة على الخصوص، وأبناء البشرية على العموم.. الذين أصبح الكثير منهم يكتب أهدافه بأيادٍ مُرتَعِشة مهزوزة، فإما أن يُخطِئها، وإما أن تكون مدغشة مُغبّشة، فيسيرون إلى أهدافٍ زائفة لا يبصرون لها مَلمحا ولا يسلكون إليها صراطا.

واللهَ أسأل أن يصبح هذا الكتاب المتواضع عظيم النفع ترجياً في ذلك، وأن يسلك في قلوب العباد مسلكه، وأن يرنو إلى أعينهم، وأن يكون نبراساً مُنيراً لكل من تعتمت أمامه المواقف، وأظلمت قدَّامه الآمال. وأن يكون مُرشِداً لهم في قادم حياتهم، ومخرجاً لهم من ظلمة الماضي البئيس إلى أنوار المستقبل المُشرِقِ الزاهي إنه سبحانه و تعالى وليُّ ذلك و القادر عليه.

شوقي السّيد شوقي

أبو جَنَّة

ماذا تريد ومن أين تبدأ له وكيف تصل إليه وتحصل عليه ؟

لا شك أن أصعب هذه الأسئلة جميعا هو أولها "ماذا تريد"

فهو العماد الذي يستند إليه السؤالان الآخران فلو أُجيب عليه لتوفر الكثير من الوقت بله الجهد

لكن الإجابة على مثله ليست بهذه البساطة ولا بتلك السهولة التي تَدلف إلى الأذهان وتلج أكناف الخاطر.

بل هي صعبة عويصة إلى أقصى حد مما يحدو بنا أن نُسخِّر لأجلها فكرا رصينا وذهنا بالغ العمق في استخلاص الحلول واستعداء المآزق.

نعم هو مأزق بكل التعبيرات لذا كان العوز إلى رجل خبير يستطيع أن يقع على حقيقة نفسه وينبش فيها عن حقيق مراده وصادق عزمه.

وقبل الجواب عن هذا السؤال المعضل نتطرق قليلا إلى حياة هذا الإنسان المَجهود الذي لربما أفنى عمره ولم يجد ضالَّته بعد.

إننا نتحدث عن إنسان أجاد البحث والتنقيب وتنقّل في كل ميدان يريد بصدق أن يعلم الموطن الذي يستحق أن يكون فارس مضماره ورأسَ الإبداع فيه.

ذلكم الباحث المُجدُّ عليه أن يلتمس وبحذق الفنّ الذي تبدع النفس خلاله ويمتلئ العقل قُبالته حماسة والعزمُ حياله إصرارا.

فعلى فرض أنه يبغي الطلب للعلوم الدينية رَوما منه أن يصير عالما في مجال منها أوفيها جميعا فها هو قد خاض في دراسته الجادة للفقه والتفسير والحديث والأصول وغيرها مما هو مادةٌ رصينة في بناء الدين بيد أنه لم يجد رغبةً عارمةً متأججة في صدره تدفعه لإكمال ما رامه وإتمام ما كان له قاصدا.

عليه عند ذلك أن يُحيل رغبته إلى فن آخر ويمضي بلا توان ولا إبطاء هكذا يتقلب بين الفنون لا تهدأ عزيمته ولا يبرد سخين همته.. إلا و هو متربع على عرش مراده و سرير مملكته التي هيأ في ذهنه قبل.. وأعدها في الواقع حية بعدُ.

وإنه ما التزم ذلك ولم تنله السآمة والملالة إلا كان له عهدٌ بما أضنى نفسه فيه فقط راغبا بأن يتعرَّف "ماذا يريد"

ولا بد له أن يجد ضالته ويقع على مفقوده الذي سيملِّي عينيه منه

يوما ما.

تلك الضالة التي طلَّق لأجلها كل لذة وتخلى عن كل صارف عن إدراكها و المِلاك لها.

تلكم الضالة التي أثارت عزمه إثارة شديدة حيالها لمرموقيتها شرفا وعزا وسؤددا.

تلكم الضالة الفذة المديدة في فذادتها وعظمتها هي الغاية التي يَستشرف لها عزم العظماء وتشرأبُّ إليها أعناق طموحات الوعول أهل السيادة والريادة.

تلكم الضالة هي ما يتوجب لها أن تُخط بقلم حدُّه يمتلئ زهوا وعُجبا بأحبار ذهبية سنيّة برّاقة.

إنها المجد: الكلمة التي راحت لأجلها أرواحٌ عظامٌ وذهبت في سبيل تحصيلها ملذَّات كبار ونشبت حفاظا على قدرها حروبٌ وملاحمُ غايةَ ما يكون في الكفاح والنضال.

إنني عندما أقف أمام هذه الكلمة المرموقة الموسومة بالحسن والجمال أجدني هزيل القدر ركيك القيمة.. أرغب في خبأة مديدة وخفاء مستديم.

وقفت أرمق بعقلي وبصيرتي هذا البناء الشامخ الذي شُيدت به

أصالتُها وأقيم على أساسه لألاؤها ونضارتُها.

فألفيت أنه لازم لتحصيلها احتواء المرء في نفسه ما اشتملت عليه في بنيتها الحِرَفية الرصينة. فالميم مع الدال يتألف منهما المد. والجيم مع الدال يتألف منهما الجِد.

فراغب المجد إن تصدقه رغبته يسعى صوبه بالمَد في الجِدِّ

وراغب المجد إن تصدقه رغبته فليس له مع القصد من حدِّ

وكفى طالبَ المجد ببسالةٍ وإقدام أن يُوقن أن الأشياء العظيمة تأتي بها العزيمة وأن من اشتدت عزيمته ثرَّت غنيمته وارتفعت قيمته واستُرِدَّت كرامته.

وأن كل هدف يسيرٌ بالقول صعيبٌ لدى الفعل.. وبالعزم يكون البلوغ وبالحزم يُستسهَلُ المراد وتكمن الأمنية بين القبضة.

إنني أؤمن إيمانا راسخا لازبا أن كل مخلوق ليس الإنسان وحده يجيد إجادة كاملة جهة معينة مُحددة على أقل تقدير فإن كان هذا يمتلك نبوغا في ناحية ما فإن الآخر يمتلك بلا ريبٍ نبوغا في ناحية أخرى.

ولست أؤمن أبدا بهؤلاء الذين يعتنقون فكرا ضالا فاسدا بأنهم لا يجيدون السير في أي ناحية هؤلاء الذين يرون كل الدروب

حالكةً مُمعنة في ظلمتها وأنهم يخشون الظلام خشية الهرِّ من ذنب الكلب بل رهبةً شديدة لما يداهمهم فيه من عقبات كؤود وعراقيل موبقة.

لذا.. أبثُّ في جنبات نفسك هذا اليقين الصادق الفعّال أن الإيمان بالقدرة الذاتية فرضٌ لازم على كل إنسان عاقل كُتب له أن يعاني قسوات هذه الحياة وشدائدَها على أرض هذه الدنيا.

وعلى العاقل أن يرغب فيما يتلمح من نفسه تميزا فيه وما يمكن له من خلاله أن يضع لبنته في بنية المجد والفخار المقتصر على بناءيه من الماجدين العظماء.

إن "ماذا تريد "هذه تعنى التخصُّص وبناءَ الشخصية المروم رؤيتُها مقبلةً على النجاح بلا هيبة مدبرة عن الفشل والإخفاق بلا تردد ولا اضطراب.

فهب أن خالد ابن الوليد كان في موضع عثمان بن عفان وأن زيد بن ثابت كان مكان عمر بن الخطاب وأن علي بن أبي طالب كان خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته بدلا من أبي بكر الصديق " رضي الله عن صحابة رسوله أجمعين" ماذا كان يكون وينتظر إثر ذلك؟

إن انهدام الدولة الإسلامية في هذا الحين كان هو الشعارَ الذي سيطوف مدويا مخترقا الغيم على ألسنة أعداء الملة الطاهرة في كل مكان لكن لكن قد حسم هذا النزاع والفشل الذي كان ليطيح بهوية الأمة المحمدية جمعاء، ولا يجعل لها مأوىً ولا قرارا بعد ذلك ولكن الله كدأبه فيها سلَّم تسليما كبيرا.

فكان كل واحد من الصحابة على علم بما هو مجيد له متقن إياه فقد علم الواحد منهم موطن نبوغه ومطية تميزه، وتلك كانت العبقرية والشموخ اللذين تآزرت بهما سواعد القدرات في محيط الدولة الإسلامية المجيدة فضلا عن هذه الحكمة التي تزيَّت بها العقول النابغة من أن الشأن ليس هو الذاتَ الواحدة أن تعلو وترقى بل هو أن تعلو الراية الإلهية الغرَّاء مرفرفةً في سماء العالمين مُخضعة لها كلَّ الرقاب غير مُكرَهة أو مُجبرَة.

لذا أعود مرة أخرى قائلا بلسان رؤوم وقلب عطوف. ماذا تريد؟

إذا أردت أن تكون ذا قيمة حقيقية فلا بد أن تجيب صارخا عن " ماذا تريد؟ "

لمَّا عُرض على النبي صلى الله عليه وسلم جمعُ المال له ونيل

السيادة والرئاسة ولمَّا عَرض عليه عمُّه ما حدثه به قومه من تركه لأمر دينه وإعراضه عنه مع ما ينتظره لقاء هذا الإغراء من عرَض الدنيا ومتاعها. ردَّ عليه قائلا بجسارة هائلة وتحدٍّ عظيم.

" والله يا عمَّاه لو وضعوا الشمس عن يميني والقمر عن يساري على أن أترك هذا الأمر فلن أتركه حتى يأذن الله لي أو أهلِك دونه"

هكذا من بين شفتيه انطلقت الكلمات كالرّماح في أعطان المشركين، وما حدى به إلى ذلك القول إلا أنه موقن بقضيته أعمق الإيقان، وأنه لو لم يكن يعلم ما الذي يريد تحديدا لكان امتثاله لأمر عمه وقومه مَحتوما لا محالة ولذهبت دعوته أدراج الرياح ولانقضَّ ما بناه مُنيفا في لحظة واحدة.. لكنه يعرف ما يريد جيدا لذا شرع في قوله الذي تسبب في دهشة عمه وذهول قومه منه

فأي قضية تلك التي تُؤبى من أجلها هذه العروضُ الهائلة العظيمة.. وأي رجل هذا الذي يرفض الملك والسيادة على قومه ويرضى بفقره وفاقته إزاء ما يؤمن به ويفتديه بدمه الشريف.

مما لا شك فيه أنه يدري تماما ماذا يريد وفيما يطمح و إلاما يرنو.

هل تعرف ماذا تريد حقا؟

وإذا كنت تعرف، فهل أنت على جاهزية لدفع الثمن له وبيع

راحتك من أجل اجتلابه لنفسك؟

إنه لينبغي عليك أن تدرك إدراكا كاملا أن هذا الأمر خطير غاية الخطورة إذ منه يُرتسم مستقبلك ويُنالُ مجدُك.. إن معرفة ما تريد معرفة وكيدة يختزل لك الكثير من البذل والعطاء في غير ما تريد.. لذا أقولها لك.

[إذا استطعت أن تعرف عن ماذا تبحث فهذه أول خطوة للبحث المحقق]

وقد اتضح هذا جليا في الموقف النبوي السابق بأن هذه الإبانة وهذا الإفصاح عن الإرادة الصادقة الواثقة كان هو الدافعَ لصاحبه في شدِّ أزر دعوته وتقوية عضُد رسالته وكان هو الحامل له على تحمُّل الأذى طيلة هذه السنوات من لدن بعثته إلى حين انتهاءها وارتفاع روحه الطاهرة إلى باريها سبحانه وتعالى.

والسؤال إليك أيها القارئ العزيز...

ماذا تريد؟

سؤال في كلمتين هما من السهولة بقدرهما من الصعوبة فلا استهانة بهما إذ عليهما مدار الحياة بأسرها.. ولأجلهما يُبذل كلُّ غال في إحقاق ما وراءَهما.

[إن تحديد الهدف هدف آخر يجب أن يُنجح فيه لأجل أن يُنجح في ذات الهدف المحدد]

إن مما يتوجب على المرء منا أن يقع على مكامن نفسه يستخرج منها كل مراداته ثم ينظر ما يتناسب مع أصل إمكاناته.

فمن الغباء الفاحش والحمق الموحش أن يسير المرء في طريق لا يعرف مآله ولا محط رحاله يسعى كالبعير الضال.. وإن عرفه لا يسِر إليه ولو مقدار خطوة واحدة.

إن ماذا تريد هذه.. هي المفتاح الذي من وراءه ينفرط عِقد الصعوبات.

وهي اللحن الجميل الذي يُوقَّع على قيثارة النجاح والإبداع.

وهي بلا ريب الخطوة الأولى التي لا غنى لأحد يرغب مجدا عنها.

والخطوة الأولى هي تلك الخطوة الأهم والأخطر في مرحلة السير إلى إدراك النجاح والحوزة القابضة عليه.

هي الخطوة الفاصلة التي إن تمت بنجاح كان ما بعدها أيسرَ وأتم وذلك لدفعها المرءَ أن يسير بقوة عازمة وإرادة صُلبة صارمة تأخذه ناقلة إياه ربما إلى الخطوة الأخيرة في مدة لا تُعد شيئا في مسيرته

النبيلة تلك.

الخطوة الأولى وهي هنا التي تتمثل في معرفة شمولية مدروسة لطريق الإرادة والتوجه إلى أي أينٍ.. إلى أي ناحية أنا سائر ومتى ينبغي أن أتوقف فورا؟

هي العصب الرئيس للنجاح وسبيل الارتياح فمن أنجزها واجتازها تولدت في دخيلته سعادة كبرى وتفاؤلٌ عارم يسوقه سوقا أن يحرز ما بعدها بقوة أكبر وتفاؤلٍ أعمق من سابقه بكثير.

الخطوة الأولى هي بداية ظهور الكنز بعد حفر مشق متعب قد استغرق القوى واستنفد القدرات واستفرغ العزم والجهد حتى آخرِه.

فما الشعور الذي يساكن شخصا ما إن نفد عزمه وانطفأت نار قدرته وكاد يبلغ اليأس منه مبلغا رأى تباشير الأمل المُبهجة المُنشية التي أوقدت ما انطفأ واسترجعت ما نفد وغاض.

لا شك أنه سيأخذ دَفعة عظمى وحثةً كبرى لإتمام أمره وإكمال دربه نحو مَرامه الذي حدد ورام.

الخطوة الأولى: أيها النبيه هي تلك الرشفة السحرية التي من ارتشفها بلغ العز والمجد حاويا لهما من أطرافهما جميعا، لكنها مع

هذا السحر الذي ينقل المرء من مرحلة إلى أخرى، من الحضيض إلى الأعلى، من السفح إلى القمة، من الضعف إلى القوة، من جحيم اللاوجود إلى نعيم الوجود. ومع ذلك كله تحتاج إلى عمل جادٍّ قادر لا انفكاك عنه حتى البلوغ والوصول.

تحتاج إلى اعتماد كامل على الذات مع تمام الثقة في مقدرتها على الإنجاز والاستمرارية بلا توانٍ ولا تقهقر نحو الوراء.

إنها باختصار شديد، تحتاج إلى عِصامية لا إلى عِظاميه.

إن الذي يتناول هذه الخطوة الأولى مُتعهدا إياها لا يغيب ناظره طرفةً عنها فهو رائيها على الدوام لا يشغله عنها شاغل مهما كان قدره وفاق خطره، ذاك هو الذي يتأهل لنجاحه فيها عن جدارة واستحقاق، ومن ثم نجاحه في سائر عمله الذي ابتدأه توًّا وأوقد أول وقدةٍ فيه.

أمَّا ذلكم الذي قعد يُمَنِّي نفسه أن يتبناه أحدٌ ليستخرجه من قُمقمه المستكنِّ فيه ويستنقذه من مأزقه المُحكم عليه. مع صيرورته متخبطا بين هذه الأراجيف الساخرة الحمقاء والأساطير التي لا مكان لها إلا في عالم الخيالات والأوهام.

ذلكم هو الذي جنى الجناية الكبرى على نفسه مُصِيبُها من

حيث لا يدري أو يدري في مقتل لا قَومة لها بعده إلا أن ينهض بها مشعلاً جذوتها من قريب مستعيداً تألُّقه وتبدِّيه نجما لامعا في سماوات المجد وصفحات العظماء.

فيا أيها الذي قرر أن يتخذ خطوته الأولى في سبيل مجده وطريق شرفه ودرب بزوغه ولمعانه فلتعلم جيدا وتتيقن أنه قل أحد أن يجتاز هذه الخطوة من أول محاولة بل قد يحاول مرات ومرات فلا يصلُ إلى شيء لكنَّه بلا شك يكتسب خبرة أكبر وأخطر من ذي قبل، فيكون ما حاوله كي يبلغ به مُجدياً من خلال مروره عبر نجاحات صغيرة متراكمة حتى يكتملَ بناءُ نجاحه الأعلى في اجتياز هذه الخطوة اجتيازا صائبا دافعا حاثًّا.

فلا يأس ولا ملل ولا سآمة فأنت تقدر بحول الله وقوته أن تبني مجدا خالدا وتصبح قَيلا قائدا شريطة أن تحاول ثم تحاول ثم تحاول.

إذ إنه من حاول تناول، ومن بذل جهده وجد مجده، ولا سبيل إلى تفوقك ولمعان نجمك ونقش اسمك إلا على ساق الجد والعزم وبساعد القوة والقدرة والنشاط، وبنفسٍ يملؤها الأمل والتفاؤل ويُترِعُها اليقين والثقة.

هذه هي الخطوة الأولى لبداية قوية ووجودٍ سام ونهاية وضَّاءة

مُشرِقَة.

فاعمل ليل نهار مجتهدا باذلا كل ما لديك حتى يَمثُل مجدُك بين يديك.

من ليس يبني مجده بيمينه .. عارٌ عليه بأن يقول بنيتُ.

إنه لمن المُحزن بعد هذا الإيضاح للأهمية القصوى للخطوة الأولى أن تجد من لا يُلقي لها بالاً ولا يعطيها أيّ اهتمام ثم هو يترقَّب النجاح على أحرَّ من الجمر، وأنَّى يتسنى له ما يترقبه.

وإنه لمن الذكاء البالغ والنباهة الفارعة أن يعلم المرء ماذا يريد أولا ثم يترحَّلَ إليه بخطوات متأنية محكمة، وإنَّ معرفة المراد لمن أصعب وأثقل العناءات التي تنتاب النفوس.

والمرء النَّابه هو من يظل بنفسه حتى يعرف مواطن قوتها أين تكمن ثم يُحلِّق بعزمه وينطلق بحزمه في آفاق المجد متخذا الأسباب إليها، وإنَّ مما يُذهل العقل حقيقة أن يُطرح على البعض ممن يُظن فيهم الخير.

ما الذي يريده؟

فيكون جوابه بداهة: لست أريد شيئا.

إذن لماذا تعيش؟

فيهدر قائلا: كمن سبق وسلف.

وماذا تعني كمن سبق وسلف؟

فيقول: عاشوا فماتوا...

إنه شيء جد يُؤسف النفس ويُدمي القلب ويَستدرُّ الدموع أن تسيل سيلا متدفقا مِدرارا.

أهذا ما تريد أيها الإنسان؟

تريد أن تعيش أعوامك وأيامك وساعاتك بلا فائدة، بلا وجود، بلا حياة.

إنه خطر يُهدد الشريحة العظمى من أبناء هذا العالم... تخيل لو أن هؤلاء منعدمي الإرادة أيقظوا في أغوار نفوسهم الغفلةَ التي تشعبت في باطنها. فهبُّوا يجتهدون ويقدمون كما قَدَّم العظماء من قبلِهم.

ألم يكن لِتتبدلَ الرتابة المُملة في حياتهم إلى حركة منتشيه حثيثة هادفة فتنبعث فيهم طاقات إبداعية خلاَّقَة تخلق فيهم حماسة تزجُّ بهم في دائرة السعاة إلى الفضل و العلا عندما يعلمون أن من قَدَّم شيئا نافعا للبشرية فهو في عِداد الأحياء الأقلاء الذين ازدان بهم الزمان وازداد بهم عبقا على عبقه.. فوق أن الأيام تُقدم له البقاء

الحسن والذكر الخالد.

وهل هناك أثمنُ من ذلك الجاه وتلك الوجاهة والعظمة.. هذه الأعمال الثى تدنيه من رضا ربه سبحانه عليه، الذي دونه الآمالُ والطموحات.

إن هؤلاء السَّفلةَ السَّقطةَ لا بد لهم من إدراك لتغيير هذه المفاهيم الهابطة الراعنة عن الحياة من أنها مأكل ومشرب ليس إلاَّ.

كلا " إنَّ الحياة جِد واجتهاد وتعب وعناء قد قُدِّر على الجميع مكابدتُها " لذا قال سبحانه وتعالى **"لقد خلقنا الإنسان في كبد"** والملحوظ أنه جلَّ جلالُه عبر بـ" في" دون غيرها من الحروف.

إذ إنها تفيد الكمون والدخول في شيء ما ومن ثَمَّ إحاطةُ هذا الشيء بالداخل فيه، فيُفهم من ذلك أن الحياة كلها من صرخة الميلاد إلى مَنعى الوفاة عناء وبلاء واختبار يتطلب صبرا عليه وتجلدا له أيَّما تجلد وأيَّما تصبُّر.

وهل من أحد كمل عقله وتم.. له أن يزهد في بقاء حياته بعد موته، يتفوه الخلق بجميل سيرته وجليل عظمتها، يمتدحونه ويترحمون عليه ما ذُكر بينهم، أو أن يكون ذا قدر وقيمة في أوان حياته؟

لست أرى زاهدا في ذلك الخير ومثنيا نفسه عن هذا الطموح العلي الرفيع إلا من جُنَّ عقله وحمقت نفسه فلم تعد راضية إلا بالسَّفال والضَّعة والهوان ولا شيء سواها.

ولله درُّ أمير الشعراء " أحمد شوقي " واصفا النوعين السابق الحديث عنهما:

الناس صنفان: مَوتى في حياتهم.. وآخرون ببطن الأرض أحياءُ.

بُلهاء من يظنون ذلك الظن "ظن الزهد الذي أحالهم إلى ناصية طريق أعوج مائل فقادهم بدوره إلى بؤرة الإهمال والإغفال و النسيان، وكأنِّي به قد استمع إلى هذا الشاعر الذي لم يعرف من الحياة إلا المطعم والمشرب، وخسئت تلك من همم وغارت تيك من عزائم.. حيث قال ناصحا بالخمول والقعود بل جاعلا من الإنسان المكرَّم بهيمةً ترعى فقال في خسة عارمة:

دع المعالي لا تنهض لبغيتها.. واقعد فإنك أنتَ الطاعم الكاسي

وإنه لمن الظلم البشع للنفس أن تُكلَّف من العمل ويُطلبَ لها منه ما دون قدرتها وطاقتها، كما أنه من الظلم لها أيضاً ان يُطلبَ لها من العمل ما يفوق قدرتها وطاقتها.

يقول سقراط:

" ليس العاطلَ من لا يؤدى عملا فقط، العاطل من يؤدى عملا في وُسعه أن يؤدِّي أفضل منه "

فالواجب على الفضلاء الذين يبغون الفضل ويرغبون العزة أن يتنبهوا لهذا الأمر من علمهم لذاتهم قدرَها ومن طلبهم لها ما يتناسب وعزمَها حتى لا تضيع أوقاتهم سُدىً وأعمارهم هَملا، فلقد جعل سقراط هنا الذي لا يعلم قدر نفسه لنفسه كالذي لم يضعها في حيز العمل أصلا.

ما الذي قدمته من عمل عظيم شامخ حتى يومك هذا الذي تحياه؟

إذا لم تكن تعرف ماذا تريد، فهذا بحقٍ من أشدِّ وجوه الفساد في الأرض والعيث فيها والعبث عليها.

إذ لو جهل كل واحد منا موطن قوته وعمل مالا تشتهى إرادته و تلح عليه به وتطلب جوارحه و تستنهض العزيمة فيه، فأنى يكون له استعمار الأرض واستخلافه فيها، إن هذا بحق يخالف تمام المخالفة الناموس الذي تقوم عليه مبادئ هذه الأرض وتنبني.. جيل يَخلف جيلا، قدم فأبدع، لكن أنت ماذا قدمت؟

لا تقل لي: قدم آبائي وأجدادي.

لأنني سأجيبك بداهة وأقول لك:

لا تفتخر بما قدم آباؤك وأجدادك بل ليكن افتخارك بشرف ما قدمته أنت لأبنائك.

ليس الفتى من قال كان أبي.. إنما الفتى من قال ها أنا ذا

أسألك الآن بكل حماسة، وأرغب منك ردا لا خجل فيه ولا مواربة.

ماذا قدمت وما الذي تنوي تقديمه بعد؟

إلَّم تجد لديك جوابا على سؤالي إياك فاعلم أنك من المبادرين المسرعين صَوب الإخفاق والفشل.

إن الإنسان كلَّ الإنسان ما قدم وما صنعت يداه، فالمتقدمون البواسل في ميادين الكفاح مضوا بما قدَّموا وها هي علائم تقديمهم باديةً بيِّنةً أمام مُقل عيوننا لا يسترها عنها ساتر.

أيها العاقل الأريب، إذا رمت الإبداع، فضع ما قدَّم غيرك وراء ظهرك بعد أن أخذت منه ما لا يخفى أخذه عن مثلك، ولتقبلن مشمرا عن ساعد جدك وساق عزمك مطلقا عقلك في مغاوير الفنون.. مقبلا على الحقيقة غامسا فكرك في ماء التجربة مجاهدا كميا مناضلا في ساحات وغى العلوم، ولتثق أن الجميع ينتظر على تشوق وتلهف أن يرى من أنامل إبداعك ما قدمت وما

صنعتَ فهذا أنتَ.. أنتَ ما تقدمه لا ما يُقدَم لك.

لا تقل أصلي وفصلي يا فتى... إنما أصل الفتى ما قد حصَّلا.

أنت القيم والأخلاق والمبادئ.

أنت الحياة ما أحييت الناس بفكرك وابداعك وانفرادك

وأنت المهات ما سلبت منهم هذه الحياة النعيمة الزاهية الغنَّاء.

وإن الحياة لا توهب لهم وتقَرُّ قرَارها بأنفسهم إلا بها أتممت إتقانه وإحسانه في الحياة، ولا تسلب منهم إلا إذا تقاعست عن تقديمك الروائع الفذة الفريدة الوافرةَ بالخير المُترعةَ بالحياة.

فمن يا ترى تريد منهما أن تكون؟

لكأنِّي بك قد أبيت الثانية.

لكنى أراك بعين مشفقة حنونة متقهقرا مختلجا مترددا في إرادتك الأولى أن تكون من أهلها السادة النابغين.

لا تتردد.. واعلم دائما أنك لها وأنك تقدر على الإتيان بما هو الأفضلُ دائما وتذكَّر قول الملك سبحانه: **"ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ".**

وانظر مالك من الأجر والثواب والفضل الجزيل.. وصدقني لا

تتردد وذلك أن يفوتك من العلاء والرفعة ما تأبى النفس الكبيرة فواتَه وضياعَه.

[عليك أن تثق بنفسك، وأن تخلع عنها كل وهم يُبدِّد قدرتك ويُوهن قوتك ويُحبط همتك، ولترد القمة دائما ولتَنصبُ نحوها، فمن أراد القمة رُزق الهمة، ولا تُرد المحال، ولا تجهل قدر نفسك بحال، وجرِّب وإن فشلت، وجازف ولتكن جسورا على أي عمل ولو أن كان مخاطرة ولو أن كان على الموت فالطرق الوعرة العويصة هي ما تُبنى بمسلكها النفوسُ الغاليةُ النفيسة.

فمن كان ذا إرادة وعلم ما يريد حقاً.. فليكن ذا ثقة كاملة بنفسه حتى يُوَفَّق لتحقيق ما أراد.

ما قيمة حياتك إذا ما كنت على غير ثقة بنفسك؟

بل ما قيمتها أصلا إذا كنت لائما الأقدار على أنها السبب الرئيس في إخفاقاتك العِظام وخيباتك الجسام.

قم وانهض وانفض غبار اليأس واللوم عن عاتق عزيمتك وجرِّب ولن تخسر شيئا، فإن نجحت في تجربتك فقد حققت المراد منها، وإن فشلت فلقد أضفت خبرة جديدة لرصيد خبراتك من جرَّاء تجاربك السابقة في حياتك، ومن ثَمَّ جرِّب ثانية وثالثة، جرِّب حتى تصل إلى مرادك أو تموت دونه، فلأن تموت في طريق العزة خيرٌ لك من أن تحيا في سرداب الأذلَّاء.

إضافة إلى أن التجارب تزيد وعي المرء وإدراكه لحقائق الأمور والوقوف على أسرارها ثم تنشئ منه ناصحا أمينا يبدي نصحه لغيره ما عالج مثل أمره فيصير نجماً لامعاً هادياً لكل من تاه في ظلماء الطريق وبيداءه الموحشة.

إن الواثق بنفسه يستطيع أن يصل إلى بُغيته بيسر وسهولة أكبرَ من الذي لا يثق بها ولا يطمئن لقدرتها.

وذلك أن الفاقد لثقته بها كثيرٌ وهمه بَثيرٌ كَلِمه لا يدري قدر نفسه ولا مدى تكريمها الذي كُرِّم.

فبداهةً أن من جهل قدرته وقدرهُ دُفن بكنزه.. فإياك ثم إياك أن تذهب عن هذه الدنيا وتغيب تحت الثرى وأنت بعدُ لم تتعرف ما أنت مالكه ومختزنه بنفسك من كنوزٍ ثمينة غالية فإن المرء العظيم هو الذي لا يفتقد أن يتعرف قدراته فيقع على كل منها صانعا منه مجدا مؤلفا منه فخرا يفخر به حيا ويفخر الخلق به ميتًا.

إن التعرف على القدرات الكامنة في الذات هي تلك السِّمة الحسنة التي تبعث على إرضاء الله عز وجل بطاعته.

أليس هو القائل " **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** " فالنظر في أغوار النفس وغياهبها يشمل كذا القدرات التي يتحلَّى بها كل عبد من عباده سبحانه وتعالى.

وإن الواقع على مكامن قدرته اكتشافا واستخراجا هو ذلك الرجل العظيم المُرتقبُ على لَهَفٍ والمُنتظرُ على شوق مجيئُه وقدومُه حتى يشرف بتغيير وتبديل ما لم يَلِق أن يتصف به قوم يرغبون العزة والرفعة إلى ما يليق بهم أن يتصفوا به وينتسبوا إليه مما يُوسمون به من كرامة العقل والشكل وتبعات التمكين في الأرض.

قال الجليل سبحانه في كتابه العزيز:

"**ولقد كرمنا بني آدم** "ومن بوادر هذا التكريم المذكور أن الله عز وجل مَنَّ عليهم بالعقل والذكاء والنباهة، فكيف تَسنَّى لواحد منهم أن يُهين عقله عن تفكيره في مَقدرته أن يصنع الفضائل ولا يتباطأ أبدا أن يسعى في طريق الرذائل المعتمد على هذا التقييم الجائر منه لنفسه.

كيف لم يستغل هذا العقل المكرم به في أن يتغلب على عوائق الإحباط وعوامل التثبيط التي يُلاقيها من نفسه أو من غيره في هذه الحياة؟

وهو موقن أنه مع إهماله لها تتفاقم إلى حد لا يستطيع معه محاولةً ولا يجد حياله قدرةً يمكن لها أن تبدده أوتجرف به بعيدًا. فسبحان الله العظيم من حال كهذه.

إن هذا المرء الفاقد لثقته في نفسه إنسان ضعيف واهن يبدو أمام كل مشكلة حقيرا في نفسه لا قيمة له عندها... فكيف غفل عن أن ثقته في نفسه إلَّم تكن من نفسه فلا سبيل له في جلبها من أي مصدر آخر خارج عنها؟

وإنه ليس هنالك إنسان ضعيف. هنالك إنسان لا يستطيع

السيطرة على نفسه حتى يصبح إمرءً قويا.

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة .. فإن فساد الرأي أن تترددا

فعلى المرء الطامح إذا حدد ما يريده وأبدى ما يراه أن يكون على أتم الثقة في اقتدار نفسه على البلوغ إليه، وأن يثق بأن كل مشكلة تقف عائقا أمامه لها حل وإن كان متخفيا عن إدراكه في الوقت الراهن، وأنه يقدر على استصحاب المشورة من الآخرين ذوي الرأي السديد متى أمكنه ذلك كي يجد لها حلا أو يعمل على بترها من الأصل تماما.

فيا أيها الفاضل خُذها مني صريحة **"عليك بأهل التثبيت ودعك من أهل التثبيط"**

الإرادة الفولاذية

إنَّ العظماء أبدًا لا يبحثون عن التافه من الأمور والحقير منها، وإنما يبحثون عن العظيم منها ويطلبون العلا دأبا إليه، ويندبون أنفسهم الى ذلك ندبا كبيرا ويجدُّون في حثِّها عليه.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم .. وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها .. وتصغر في عين العظيم العظائم

إن هذا الشاعر الأريب فطن إلى أمر خطير في أهميته، وهو أن العزيمة التي تنبعث من المرء وتتولد داخله تكون على قدر همته ومطمحه، فإن كانت همته في الثريا كانت عزيمته فيها، وإن كانت في الثرى كانت عزيمته تحت الرغام دفينة.. ثم بيَّن أن الرجل صغير الهمة فاتر العزيمة تكبر في عينيه الأمور الحقيرة التافهة على العكس تماما من حال هذا الرجل الأبي الطموح الذي أعلنها في نفسه وأذاعها على جوارحه رحلة إلى المعالى لا تراجع عنها ولا انفكاك.. وديدنه في أغوارها أن يتحمل المشاق ويصبر فيها متجلدا إلى خاتمة الأمر ونهايته.

فإن العظائم والهوائل مهما عظمت وهالت تبدو في عين همته صغيرةً دقيقةً فيتمثل لها كميا بطلا مغوارا مكافحا حتى يرجع بالظفر مستأنفا سيره في ركب المعالى برحلة تلو الأخرى وهكذا ما بقي في نفسه رمق من حياة.

ولقد حضنا الحبيب صلى الله عليه وسلم على روم المعالى وطلب الكبار إذ إن التافهين يُعرفون بتعظيمهم التوافه بينما العظماء حقا يُعرفون بتعظيمهم العظائم.

فقال صلى الله عليه وسلم:

[إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى من الجنَّة]

إنه يريد لنا الشرف والكرامة والمنزلة العظيمة السامية ومن المعلوم أن الجنة درجات كثيرة ومنازل عديدة فهو يريدنا ألا نطمح في الجنة فقط بل نطمح في أسمى ما يمكن أن يُوصل إليه فيها من نعيم ولذة.

إنه يعلم أن هذا ليس سؤالا يُطرح وحسب بل يعلم أن من وراء ذلك ستهُبُّ هِمم أمثال الجبال التي تناطح السحب في السماء وأمثال الحديد في عزمه وشدته تطلب أسباب ذلك والأخذ بها حتى تكون حقا يُؤتى لأصحابه تكريما وتفضيلًا.

مما سبق فقد عُلم أن المرء ما طلب الصغير من الأمور. تولدت عنده همة تماثله في الصغر.

وما طلب الكبير منها تولدت عنده همة تماثله في الكبر. فاللهَ اللهَ في رغائب ذوي الرفعة والشموخ والعلاء.

فقد قال الحبيب صلى الله عليه وسلم، مُلهبًا العزائم مُستفزًّا القدرات:

[إن الله يحب معالي الأمور ويكره سَفسَافها].

فهلا أحببنا ما أحبه الله فحب العمل حب للعامل، ومن أحبه الله وفقه لهذه الدرر الثمينة يقتنص منها بقدر عُلو همته وسماوة مُرَاداته.

وقال أيضًا: **[الناس كإبلٍ مَائةَ قَلَّما تَجِدُ فيها راحلةً]**

قل أن تجد في الناس ذا العزم المتقد والإرادة الصُّلبة النافذة وإنما الكثير منهم أصحاب همم خائرة وإرادات واهية، فقد رضُوا بالدون فصحبوا الخسة وألِفوها مع محبة لها وارتياح، فتسمع لطموحات ساقطة تكاد تذهب بعقل اللبيب، فهذا يرغب الفن وهذا يرغب الغناء مما لا يجدي و لا يرفع، وكم ممن يرغبون أمثال هذه الرغبات الماجنة الحمقاء.. جَمٌّ غفيرٌ يكاد لا يحصى.

ولا غرو فإن الأرض السَّبخَة لا تنبت زرعا ولا يجنى منها ثمر.

يقول ابن الجوزي رحمه الله:

[ينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه.. فلو كان يُتصور للآدمي صعودُ السماوات، لرأيتُ من أقبحِ النقائصِ رضاه بالأرض.]

إن هذه الكلمات الفذة الفريدة الماتعة تختصر مشوار الحياة بأكمله.. فإنه حقيق أن العاقل وحده من ينتهي إلى غاية ما يتمكن منه بما وُهِبه من قوة وما مُنحَه من قدرة، وبإخراج كل ما في وسعه وشد حَيازيمِه للأمور العويصة العصيبة حتى يصلَ إلى اقصى ما يُمكنه الوصولُ إليه.

إن اللبيب حقًا هو من ظن أنه سيصنع شيئًا لم يَسبق إليه غيره، وسيصنع شيئًا ليس له فيه أن يُبارى، حينها سيصنع شيئًا يستحق أن يَعظم مكانُه وقدرُه، وسيصنع من نفسه شخصًا يستحق كل استحقاق أن يشار إليه بالبنان لِيُقال إنه حقًا لَعظيمٌ أو يُقال لقد مرَّ من هنا عظيمٌ من العظماء الكبار.

كن طموحًا وابن المجد في ألق.. دع التكاسل إذ أضاع كثيرًا

واقطع طريقك عاملا متألقًا.. يَلبسِ التاج هاجرٌ تقصيرًا

كن طموحًا

لكلِّ أحدٍ منا رؤية معينة في حياته التي يحيا، يعيش حياته مناضلًا لها ساعيًا عمره لتحقيق مقاصدِها ومرامِيها، تلك الرؤية هي السماوة والرفعة التي يطمح إليها من سمَقت في قلوبهم العزائم واتَّقدت في دواخلهم الهمم.

إنَّها لا شك تحتلُّ لدى صاحبها كل رُواق وزاوية من أروقة حياته وزواياها، وتسيطر وتهيمن على كل ذرَّات عقله وتفكيره ووجدانه.

إن رجلا من رجالات المطامح الفذة الفريدة لَرجلٌ جدير بالحياة وجديرة به الحياة أن يكون هذا النابغةُ من جنودها المبرِّزين وأعلامها المتألقين.

إن الطموح يبدأ بفكرةٍ تطرأ على العقل، فتقع في شراكه، فيهوى البحث عنها، فيؤصِّل عنها كل ما يتعلَّق بها، ويدور في إحكامها وتوطيدها، ثم ينشغل بتفعيلها وتطويرها، فهو لا يعيش عيشًا ساذَجًا منطويًا وإنما يعيش ليرى نفسه التي لطالما رآها قبلُ حالماً بها

في بزَّة الشموخ وسمت العلا.

لكن الحذرُ ينبغي أن يُؤخذ وبشدة من جميع من صدَقوا في إبداء أحلامهم وإرادة تحقيقها إذ هنالك من الملهيات والشواغل ما ينبغي أن يتخلص منه كلُّ طامح يسعى بجِدٍّ لإدراك مأربه ونيل مبتغاه خلاصا لا معدى عنه ولا مندوحة للمجازفة الجريئة في مجاوزته.

ومنها:

١. قطع الفكر عما مضى إلا إذا كان في تحصيل فائدة ينجُم عنها تبصُّر بالحاضر المعاش لانجباره وانصلاحه.

٢. الفكاك من إطلاق الذهن في ساحات البعيد الغائب، فهو الميراث المحي للقلق والمجدد للتوتر والاضطراب، وجعل العروق قدورا يغلي بها الدم غليان المرجل، والانضواءُ تحت ألوية الغيب المرير المنبعث من وهم العقل في ذلك وإذكاءه له.

٣. استغلالُ الحاضر واستثمارُ كلِّ لحظة فيه بجِّدٍ وحماس وولوع بابتكار ما ينفع الإنسانية، ويعلي شأن أمتنا ويرفع قدرها في هذا الخضمِّ الهائلِ من الثورات التطورية القائمة بين الأمم وبعضها البعض.

ما هو الطموح؟

الطموح هو التَّطلُّع إلى المعالى والاستشرافُ لها.

فالرجل الطموح والطامح هو الشديد التطلع.. المعجم الوجيز

وحقيقته: إرادة ما هو مراد مآلًا بما هو موجود حالًا.

فالإنسان منَّا يحدِّد لنفسه نقطة ما يريد أن يصل إليها بعد فترة زمنية معينة.. هذه النقطة لا تزال في مجال الغيب كامنةً ثم يُبادر بالتنقُّل إليها بمحض إرادته وانتفاضِ عزيمته.. حتى يُمكَّن من بلوغها والوصول إليها فعلًا.

أركان الطموح:

أولًا: التخيل والتصور.

ثانيًا: التسبب والتوكل.

ثالثًا: الاجتهاد والبذل.

رابعًا: التَّضحية والإصرار.

خامسًا: التنفيذ والاحتياز.

إنَّ أول أركان الطموح التي تدعمه وتُعضِّد أسسه وقوائمه هو **التخيل والتصور.**

فمِمَّا يشحذ العزم ويُلهب الإرادة ويسمو بالهمة، أن يتبادر إلى ذهن المرء تصورُ نفسه وتخيلُها وقد قامت في منزلة ما وأخذت تجول في أرجاءها جيئة وذهابا بلا قيود ولا عراقيل تُعيقها عن جولانها.

يتخيل المرء نفسه في ظلال الهيئة الطيبة الرائعة المرادة و الصورة الماتعة الرفيعة المرجوة التي طالما حلَم أن يرى نفسه عليها ويخوض في أجواء هذا العالم التخيلي الشيق الماتع.. لا يهدأ له بال ولا تُحطُّ له رحال إلا حالما يُذلِّل لقدراته الطريقَ ويُعبِّد لها العقابيل التي يمكن أن تُواجَه بها في مراحل انطلاقها شاديةً مستبشرة بالخير المقدَّر لها.. فيمضي قُدُماً لا يَملُّ حتى تكتمل عنده الصُّورة التي رام، والرؤية التي آمن بها وأيقن.

وإنَّه لَمِن أكبر الدوافع التي تثب بالهمة في هذا الصدد البالغ الأهمية أن يستشعر اتِّقادَ شعوره والتهاب دخيلته أنه يتقدم لخدمة الإنسانية جمعاء وإثبات قدرته الذاتية أمام ذاته، وأن يغمره الإحساس بالشَّفقة على تلك النفوس التي تحيا حياة بؤسٍ وشقاء

في ظلام قهرها النفسي منها لها. فليس الأمرُ التخيليُّ يكون في جلالة وعظمةٍ وإكبارٍ إلاَّ إذا خرج عن حيز الأنانية العمياء وجاب ربوع الخيرية الجمعاءَ التي تسعى جاهدة لتحرير النفوس المُسترَقَّة من "عبودية الأنا " إلى التجاوب مع النجباء ذوي الإيجابية البناءة النافعة.. وتحرير الأرواح المغصوبة من غاصبيها، وإكباحِ كلِّ جُموح قاتل وشُرُود باطل.

يقول جورج برنارد شو:

[التخيل هو بدايةَ الإبداع.. فإنَّك تتخيلُ ما تريده ثم تُنفِّذ ما تتخيله.. وأخيرًا فإنك تُبدع ما تنفذه]

حقيقةُ التخيل بدايةُ الإبداع، وهكذا هو التعبير الصادق لاستفاقة النفس وقدرتها أن تعبِّر عن مقتنياتها الخفية الفذة من جوانب العبقرية المتباينة في كلِّ صوب تَصبُو إليه وكل مرتقى ترومُ بلوغ الشَّأو فيه.

اعلم بارك الله في علمك أنه " **في التخيُّل التوصلُ** "

" فإذا أحببت أن تصل إلى شيء ما، فلا بد أن يكون لديك ملكةٌ نقيةٌ قادرة تجيد فنَّ التصور والتخيل "

من هنا تصبح النفوسُ المتألقة البانية في غاية العز والشرف

والسُّؤدد إذ قررت أن تبدأ الطريق من تلقاء تصوِّرها فقد آن لها أن تهدأ بعد اختلاج، وتسكن بعد اضطراب، لا تبتئسَ أبداً على ماض اجتزَّ بعضَ الشدة من قوتها أو بعض القوة من عزيمتها.

كلاَّ بل هي نفوسٌ تواقة لا يُوهن من عزمها مُوهن ولا يَفُتُّ في عضُدها فاتٌّ.. إنَّما تريد أن تُبحر في بحار الإنجاز لا لتَخدُم بل لِتُخدم، وتريد أن تسودَ لا لتستخدم الناس كمشاعل تنير لهم الدروب ثم تخبو منطفئة بل لتكافئ كل ذي يدٍ له عليها منها يداً.

خصائص التصور والتخيل

١ . أن يكون في نفع وشرف منزلةٍ :

فليس من عاقل أن يتصور نفسه فيما يُستقبل من أيامه سارقا أو غاصبا أو راشيا أو مرابيًا فإن هذا لا يَمتُّ إلى التصور السليم بصلة بأي شكل من الأشكال كان.

فالواجب اللَّاحبُ أن يكون هذا التصور في شيء نافع رافع كالمتصور نفسَه عالما أو عابدا أو طبيبا أو داعيةً أو ما إلى ذلك من المنازل السامقةِ والمراقي الشريفة.

٢ . أن يكون النفع في عموم:

لا في خاصة نفسه فقط بل ينبغي أن يتعدى هذا النفع إلى الآخرين مما تتحقَّقُ به مصالحهم وتُنفَّذُ به رؤاهم فيسوقك الشعور إليهم في أجواف نفوسهم أن لهم الأثر البالغ الذي يأخذ بأيديهم ويروي جفاف نفوسهم من الآمال الصانعة المحفِّزة.

ولا شك أن النفع الذي يكون في خاصة النفس صاحبُه يستحق الرفعة والقدر ولكنه أبداً لن يبلغ الشأو الذي بلغه صاحبُ الهمة النفعية للجماعة وإنما هذا في شأن وهذا في شأن غيره تماما.

التسبب والتوكل:

التسبب هو عملية القيام بالأسباب قيامًا على الوجه الذي يمكِّن من حدوث المُراد.

فالطَّامح يقتنص من الواقع ما يُبرز له مطامحَه، وينظر كل ما يُهيئُه له ويأخذ بيده إلى إدراك كينونته.. وحسبك أن تعلم أنَّ

" من صاحبته الأسباب، فُتح له الباب، ومن أخذ بالأسباب أخذت بيده الأسباب "

ومن الصفات التي يتَّسم بها المتسبب أنه لا يزال يُجدِّف بمِجداف الأمل في طمِّ توكله لا ينقطع له يقين ولا ينزوي عنه تنقيح وتبصُّر وكلما أغارت عليه الأمواج وتلاطمت به الأحوال فأدرك التحطيمُ

سفينتَه رجع القهقرَى بكل طاقته يُعيد إصلاحها ويُجدِّد غرس شراعها ويُحكم دفَّتها يُلوِّح يمنة ويسرة، راغبًا لها النجاة والسلامة مبتعدا عن الصخور الصلداء القاسية، والطريق الوعرة العاصية كي لا يرتطم بصخرة ولا يتوقفَ البتة عن مسيرته التي شارفت على الانتهاء.

وهاك تلك البشارة الربانية لأرباب القلوب المتوكلة القوية

"ومن يتوكل على الله فهو حسبُه"

لَمَّا علم الله من عباده الضعفَ القائم في أضلعهم وبين جوانحهم أراد أن يُزيح عنهم هذا الضعف والخوار فسقى قلوبهم إيمانا وقوة من قبيل توكلهم عليه فليس هناك على ظهر البسيطة من هو أقوى من المتوكل على ربِّه المعتصم بحوله وقوته المستبشرِ بحدوث ما رامَه وأطلق إليه بصره على حدته.

فهو سبحانه دائماً وأبداً يحُثُّ عباده للتوكل عليه والثقة في قدرته على إحداث الأمور وإبداعها من العدم الذي يُخيَّلُ إليهم وإنشاء العجائب التي تُذهل العقول عند التعرُّض لها.

لكن وبالحسرة والأسى أن الكثير من الخلق مع جليلِ ما لهذا العمل من الأثر ينصرم عنه ويؤثر التقاعدَ والخمولَ والكسلَ " **فيا**

ليت شعري ما جناه القاعد".

وقد قال النبي صلَّى الله عليه وسلَّم:

[لو أنَّكم توكَّلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصا وتروح بِطانا]

وحقُّ التوكل، أن يُخلَص لله عز وجلَّ فيه، وأن يثق في تمام العمل كأنه حصل وكان.

وفي خضم هذا يقول الأديب الكبير مصطفى صادقُ الرافعي:

" الثقة بالله أزكى أمل، والتوكُّل عليه أوفى عمل "

فبالله من كانت تلك حالَه وكان ذلك ديدنَه أيُخيِّب الله له سعيًا أو يُفسدَ له جنيًا !

لا والله حاشاه سبحانه.. إنما يَشدُّ أزرَه ويُعضِّد ساعده ويُقوي جانبه ويَدعم همته.

إنه الله الذي يعين ولا يعان، ويقوِّي ولا يتقوَّى، ولكن أين الذين هم طلاب عونه وسِناده، إنهم والله بمجرد أن يعلنوا مطلَبهم إياه إلا ويحملهم صوبَ النجاة ويحقّق لهم ما تمنوه من غايات هذه الحياة.

فنصيحتي التي أختصُّك بها أن تقوم ساعيًا قِبَل ما طمحت إليه يقودك التوكل وتحدوك الثقة، ولتكن على يقين تامٍّ بأنك واجدٌ ما تهفو إليه وتشتاقُ منذ زمن بعيد.

الاجتهادُ والبذلُ :

جرت سُنَّة الله في خلقه أن من اجتهد نال ومن بذل طال، وسَن لذلك قانونًا في دستور تشريعاته فقال: "**إن الله لا يضيع أجرَ من أحسن عملًا**" فهذا وعدٌ لا يتخلف وعهدٌ لا يخفر، وإحسان العمل يكمن في غاية إتقانه وغاية البذل له قدرَ الوسع و غايةَ المُستطاع.

وليكن كل منا على علم بأن "**من أيقن أتقن**"

فهذا العبد الذي يوقن باطِّلاع الله سبحانه على عمله وإعداد الجزاء له عليه من نعيم وعذاب لا بد أن يتحاشى عذابَه ويسوقَ نفسه طوعًا أو كَرهًا إلى مجانبته والابتعاد عنه.. ويشرأب طماحاً إلى جنَّاته و نُعماه.

ومن الغرائب التي تستثير الحفائظ وتشعل المغاضب أن العمل قائم بين يدي عامله وعلى أي وجه سيتم وينقضي، فما الدَّاعي إلى عدم إتقانه وإتمامه على الوجه الذي يرضي ويرفع من قدر عامله ويُجلُّ من مقامه ومنزلته !

وحبيبُنا صلى الله عليه وسلم قد حدا بنا إلى ذلك فقال:

[إنَّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقَنَه]

فالعمل هو الروح التي يحيا بها الفرد ويستقرُّ بها المجتمع والنفخةُ التي تسري في فرائسه وأوصاله.. والعمل هو سر التقدم والتحضُّر الذي تُنسب إليه الكثير من الأُمم في الوقت الراهن.

فهل كان ذلك حاصلًا لأي منها لولا الاجتهاد والبذل؟

أبدًا.. ما كان يحصل لها ذلك، ولكن ماذا عنك وعن أمتنا أما ترضى أن تستعيد لها المجد الذي كان؟ أم ماذا؟

أما تريد أن تكون كهذا العُصفور الذي لا يهدأ ولا يَقرُّ إلا حَالمًا يصنع عُشه بما يقارب الألف قشةٍ وتراه يُحكم ذلك إحكامًا ويتقنه أيَّما إتقان وينتقي له الغُصن المناسب الملائم لوضعه من الشجرة التي قرَّر أن يكون بها مأواه ويظل في ذهابه وإيابه يحمل قشةً قشة حتى يُتمه على أمثل هيئة وأجمل صورة وأبهاها؟

فاعمل واجتهد ووفِّ الأمر حقَّه ومُستحقه وانتظر من ربك سبحانه عطاءه فلقد ورثناها عن آبائنا أن **"من جدَّ وجد ومن زرع حصد"**

التضحية والإصرار:

الغالبُ الأعظم من الناس يترك طريق النجاح بعد عناء بالغ ومقاربة شديدة له ولم يكن مُتبقيا له من الخُطوات الموصِّلة إلا خطوةٌ أو خطوتان وذلك من أعظم الغَبن والبله الذي حَطَّ في عقولهم إذ كيف يُعقل أن يمضي رجل محزِّما أمتعته وقد أخذ الأُهبة وأعدَّ نفسه لسفر بعيد شاقٍّ ثم بعد أن قطع أكثر من نصف طريقه وقاربَ في حساب العقلاء المَنزلَ يعود مرة أخرى أدراجَه بعد ما لاقاه من العنت والأذى عليه علائمُ الخيبة ورواسم الخِذلان.

وهذا الذي دَهاه إمَّا من يأس حاق برُوحه أو تكاسلَ أن يلحق بمن بلغ ما كان مريداً له فتراجعَ عنه.

وكم منا من يتمثل هذا المغبونَ الذي ختله القعود وداجنه الكسلُ واسترقَّه الخمول.

تجد إنسانا يعمل مجدا ويكدح كدّاً يكاد يُشارف الوصول إلى حُلمه الذي كثيراً ما أقضَّ مضجعه وأورثه التأرُّق والسُّهد.. بيد أنه قبل أن يصل بقليل جداً يكسل ويرجع متقهقرا إلى الخلف مستديرًا إلى حيث بدأ ثم يغطُّ في سبات عميق وليته ما فعل فلربما قتلته الحسرة وقضت عليه الندامة.

والسؤال المحيرُ الذي ينبغي أن يطرح الآن..

لماذا وما الدَّاعي أن نفعل بأنفسنا هذا بعد صبرٍ على عَنَت دام كثيرا وبقي زمانًا؟

أمَا كان حريا بنا أن نصبر صبر عازمٍ على الوصول إلى الغاية المبتغاة التي كان لنيلها القليلُ من الجَلَد.

إنَّ هذا لمن أحمق الحُمق وأعمق الغباء أن نتنازل تنازلاً تامًّا عن أحلامنا من أجل أَننا لم نستطع التحكُّم في عَجلة أنفسنا وطيش عقولنا.

إنَّ الإصرار والتمسكَ الكبير بالفرصة ربيبُ العظماء، يروِّضونه دائما لخدمة طموحهم ويعرفون كيف يستعملونه في مناعة محصِّنة ومضادِّة صارمة، إنهم يُناضلون بلا استسلام وينطلقون بلا خُمود.. يشقُّون كلَّ غُبار بلا جزع ولا وهنٍ ولا خوار.

ولتُصخِ سمعك لهذا القول الماتع الرائع الذي يمتاز بالقوة والإصرارِ والتحدِّي الفارع للذات.

يقول ديل كارنيجى:

[أنا مُصمِّم على بُلوغ الهدف، فإمَّا أن أنجح وإما أن أنجح]

إن المرء الذي يروم النجاح بقوة تتدفَّق من روحه.. ليس أبداً يرى الفشلَ أمام عينيه إذ لو حدث وفشِل فلا يُعدُّ ذلك فشلا

بل يُعدُّ نجاحاً أصغرَ يقوده المرة تلو المرة لنجاحه الأكبر المرتقب حدوثُه.. بل هو لا يحتمل ولو احتمالا ضئيلا أن يتصوَّرأنه لن يحصل على مراده مادام يتنقل إليه بإصرار وتصميم على بلوغه.. بل هو بالغه و نائله بإذن الله تعالى.

فهو إما أن ينجح وإما أن ينجح.. فقط.. فالمُصرُّ المخلص دائما ينجح، والمريد الصادق دائما يصل.. فإلم ينل هدفه فإنه يدنو منه بحسَب إصراره على بُلوغه وإدراكه.

وما نيل المطالب بالتمني.. ولكن تُؤخذ الدنيا غِلابا.

والإنسان العاقل اللبيب لا يُصرُّ على بلوغ مطمحه عند رؤيته الأمل في إحداثه فقط بل إنَّه يطمح إليه ويسعى في جِد وإصرار عارمين حتى وإن كان لا يرى هنالك أملا يحدو به ويُشجِّعه للنهوض والتقدُّم نحو إدراكه.

ومن ثَمَّ فالأمل يكُتسب درجة درجة في طريق التقدم إلى الهدف والدنو منه وبذلك لن يُعجزه ما يحول بينه وبين تحقيقه من عثرات أو هَنات.

التنفيذ والاحتياز:

هذا هو الركنُ الأخير من أركان الطموح الخمسة ..

فها هو المرء بعد تخيله لهدفه وأخذه بالأسباب إليه واجتهاده في هذه الأسباب وتضحيته بكل راحته ودَعته قد دخل وبالفعل إلى أخطر مرحلة وهي مرحلةُ تنفيذه لما أَرهَق نفسه من أجله شجاعة ًواستبسالا.

إن الفئة الكبيرة من الناس لهم أحلام وطموحات سطَّروها في أذهانهم ونقشوها في صدورهم بمنقاش الإيمان، والفارق بين من بلغ منزل التنفيذ لهدفه والتنفيس عن كبت روحه والتفريج عن انحباسها فترة قيامه بالإعداد والتجهُّز، وبين غيره ممن تناءى عن القيام بذلك هو الصبرُ حتى بلوغ النهاية والقلَّةُ القليلة من يصبرون، وليس يصبر إلا الرجال الذَين عاهدوا أنفسهم أنهم سيعبرون بلا هَوادة إلى ما يرومون وسيقطعون القفار والمفاوز الوعرة المخيفة إليه.

الصبر ميزان الرجولة كلِّها .. أين الرُّجولةُ فيمن فارق الصبرا.

"فما فاز إلا من اجتاز.. ولا يجتاز المرء شُقَّة سفره إلا بصبره وتجلده "

والنبي الهادي صلى الله عليه وسلم يقول: **"وإنما النَّصر مع الصبر"**

لذا أقول لك أيها الصادق في مسيره نحو غايته كن متيقِّناً أنَّ **" من**

صبر عبر، ومن أصرَّ انتصر "

إنها لَسليقةٌ لدى عظماء النفوس ورفيعي الآمال أنهم لا يرهبون الخوض في دروب التهديد والوعيد التي تهدد أمنهم وتتوعَد مطامحهم ولو كان ذلك المسلكُ يرتاد بهم بعدُ مآهلَ الموت.

ولا مِرية أن الذي أصبرهم على ذلك أنهم علموا أنَّ **[لذةَ الحصول تذهبُ بعناء المبذول]**

وهاهم الآن قد حان الحِينُ لهم حتى يُكافئوا أنفسَهم مستريحين بنصرهم إثرَ صبرهم بأنهم نالوا ما أرادوا، وحقَّقوا ما هفت عزائمُهم إليه.

ألا بالصَّبر كلُّ مرغوب ينالُ .. وما نَال المُنى إلاَّ الرِّجالُ.

طُموح العظماء

لقد نظرت المجتهدين في الحياة جيدا واجتلَيت أحوالهم بتنبُّه كبير لدقائقها التى بنوا منها فخامة أعمالهم وجسامة آمالهم وتراءيت عند ذلك اللؤلؤة الثمينة التي اجتهد جميعهم لها وبذلوا أغلى ما يملكون في تحصيلها وسبَرتُ غَور ذلك جيدا فتوصَّلت بعد معاناة شئونهم أنَّ كل من عانى لأواء الحياة وعضات أسنانها وطعنات سنانها وضربات سيوفها ولم يستكن لها أبدا رغم ضَراوة نِزالها وعَرامة قِتالها بل طفق يبحث عن مخرج من هذه الحرب الضَّروس البشعة هو وحده الشخص القادر علىً الفوز واستكمال طريقِه إلى حيث حدَّد من مجد وعلو ورفعة.

إن الرجل العظيم هو الذى يستطيع أن يجد الآلة المناسبة لخَوض غمرات الحروب ونزالاتها وهذا هو الفارق البيِّنُ بين من وقع على سلاحه الَّلائق فحد شفرته وبارز وناضل حتى كان له ما كان من عظيمة أمره وخّطورته، وبين من قطعت الحياةُ دابره ومحت أثره فجنت عليه جناية الهالك الذى أردى نفسه أوديةَ الهلاك البائرة

فلم يعد بداخله رمقٌ بُغية أن يلتقط سيفه الباتر ورُمحه النافذ حتى يُبدِّد كل هذه الكوارث المحكمة التي حفَّت مُهجته من كل ناحية وحاطت بأمله من كل صوب.

إنني نظرت نظرة فاحص مُتمعن في تفحُّصه فوجدت أنه ينبغي عند الحديث عن العظماء الَّذين تألقوا في ساحات الدنيا وباحاتها وبَنوا المجد بكل منزل من منازلها أن أتحدث عن طريقهم الذى أفنوا أعمارَهم على جادته من بدايته بل قبل بدايته كيف كان حالهم قبل تعرُّضهم لهذه البداية وتلك المُجازفة التي جازفوا لمجاوزَتها حتى يصلوا الأرض المباركة التى كتب الله لهم ؟ أرض السلامة والأمان.

وكيف استطاعوا أن يحيدوا عن هذه الطريق المشوبة بالمخاطر إلى طريق المكانات والأقدار الرَّائبة الرَّائدة ؟

فلكم غيَّر أحدَهم من موقف وحادث فتغيَّرت له مَرائيهم صوب الحياة فصاروا رُوَّادا لها بعد ما كانوا منحطِّين عند أذيالها.

يا لها من روعة التغير وياله من جمال التحول إلى طلب العلا بعد الحياة التي كان منتهاها البلِى ياالجمال الإبداع والإنجاز والسعي الذي شُكر لهم.. إنها المُتعة التى تخالج النفوس الفذة الحاذقة الماهرة

الدؤوبة المعنَّاة..ذاك هو السلطان اللَّذاذيُّ المُتعوي الذى ملك مشاعرهم وهيمن على كليتهم فوهبوا له حياتهم.

غُرباءُ الحياةِ

من المعلوم و المعهود أنَّ العُظماء يصنعون أشياء غيرَ مألوفةٍ عند عوامِّ الناس الذين يُمثِّلون السَّواد الأعظم منهم فهم صناع الأعاجيب التي صبروا لها وتمهلوا أزمنةً عديدة حتى يدفعوا بها إلى ساح الحياة وينفخوا فيها من عناءهم نفخة البقاء..لكنَّ العامةَ يظلون يجوب في حِجاهم البحثُ في عجيب أمرهم والتساؤلُ المتردِّد الذى أضنى عقولهم.. وأسهد أعينهم إسهادا.

كيف أنجز هؤلاء كلَّ هذه الأمورِ الباهرة في مدة لا تُعدُّ شيئا يُذكر في حساب عمر الدنيا ؟؟.. ولكن هيهات لهؤلاء طالما أنهم آثروا القعود على العمل وفضلوا أن يكونوا باحثين عن عظائم ما قدَّم الآخرون من صنيع أن يدركوا كيف خضعت لهؤلاء الصعابُ واهتدت إلى ديارهم المسوَّمة ركائبُ الفضل ونجائبُ الهبات.

فهذا سيدنا وسيد البشرية كلها غيَّر الدنيا بأكملها من عبدة أصنام وحجارة صمَّاء إلى عبدة الله الواحد الديان وأخرج القلوب من الظلمات الحالكة الشركية إلى الأنوار الهادية الإيمانية، وهو

السيِّد الأول والأخير في قاموس العظمة المثالية السوية بلا منازعٍ ولا مبار...المتلقي وحيَه من قبل السماء سيدُ الأولين والآخرين.. فلم يكن لأحدٍ مهما علت منزلته وسمت مُقامته أن يدَّعي عليه فضلا البتة.. لذا تبدَّى لدى العقول القاصرة والقلوب النافرة عن مأوى الإيمان ومَعقِل الهداية من أغرب الغرباء جميعا منذ قالها مدوِّية في أسماع المشركين أنه جاء بالشرع الحنيف والديانة السمحاء والناموس الحكيم المسيَّد المسيطِر على كل ذرَّات النُّفوس الباطنة و حركات الأبدان الظاهرة .. فبماذا قوبل حينها ؟ أبالحفاوة والبشاشة والبِشر أم بالتُّهمة والمسبَّة واللَّعنات المتواليات له ولدينه ومن معه ممن نحى نحوه سالكا طريق الرسالة مُؤيداً لها مُنافحاً عنها ؟

لقد كانت الغرابةُ أول تُهمة يُرمى بها وهو لا يكاد يصدِّق نفسه فبادره الله عز وجل بوحيه المبارك " **ولقد كُذِّبت رُسل من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدِّل لكلمات الله** "

فلا بد أن تؤذى ولا بد أن يتوافر لديك في نفسك العظيمة يا محمدُ من الصَّبر والجَلدِ ما تتضاءل هذه الأذايا بجانبه.. ثم ماذا ؟

كِيلت له الشتائمُ والمسباتُ المُقذعة ورُمي بالجنون وقولِه الشعرَ بل سِيقت شَدوَ علياءه خبائثُ الآمات والآفات.

لقد عاش النبيُّ الكريم في بيئة تستبيح أن تُلفِّق إليه كل شنيع وتنسِب إليه كل دنئ.

ولكن ما كان يردُّ عليهم بمثل ما فعلوا معه بل كان حانياً رفيقا ذا قدرة على ردِّ الإيذاء إليهم أمام طُغيان متجبِّر غشوم، لكنه آثر الرِّفق واللين على غيره كما كان ذلك معهوداً من حاله قبل بعثته الشريفة في صدق الكلام وحفظ الأمانات ونشر الوَداعة والسلامِ في ثنايا قريش وشظايا جبالها وأوديتها.

ظلت المناغصُ تُحيط به والمتاعب تُلمُّ بقلبه حتى اكتظَّ ألماً وتعباً من هذه القلوب الجافية الخاوية من ذرَّة إيمانٍ وفتيل نور.

إنَّها النفوس المُظلمة المُعتِمة التى غبَّرتها وطمستها آثار الجاهلية العمياءِ الفاجرة.. فيا تُرى هل من عودة لها إلى الحق أم ستظل كامنةً في ظلال الشرك وضلالاته ؟

ظلَّ النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه يُجاهد ويُناضل ويُنافح عن شرعة الباري سبحانه وتعالى، فما كان إلا وازداد عليه الخصومُ تألُّبَا واشتدت المناوءاتُ والهجمات الضارية الشَّرسة وهالت الآلام مُتفاقمة متناثرة حوله من كل حَدب و صوب.. وما استجاب له إلى هذا الحين سوى قلةٍ قليلة من الذين تخللت أنوارُ

دعوته حبَّات قلوبهم.

لكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد ؟ بالتأكيد لا...

لأنَّ العُظماء ونحن نتكلم عن رأسهم وقائدهم لا تتوجهُ قوافل اليأس تِجاه جلَد نفوسهم وكبر استمعازهم للمرادات التى يَرنُون إليها بنظراتهم الآملة إلى البروج العاجية في سماوات الطموح

لقد حدث له من الأمر الأخطرُ والأبشعُ والأطمُّ إذ أُخرج من وطنه ورماه ذوو السفاهة في عِرضه المصون واشتدت عليه القسواتُ من أقرب الناس إليه وهو صابر لا ينال ذلك الذي يحدث من عزمه شيئا ولا من إصراره على نجاح دعوته وخُلودها بل في ظلِّ ذلك كان يُبشِّر أصحابه من الذين أرادت قريش أن تفتنهم عن دينهم لكن محاولاتهم في ذلك باءت بالفشل الذريع

إذ بشَّر آل ياسر حين مرَّ بهم فرآهم على حالتهم التى أسِيَ لها طويلا فقال لهم : **" صبرا آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة "**

فكانت هذا الكلماتُ على آلامهم برداً وسلاما.

كم مِن ألم ومعاناةٍ تعرَّض لها وامتلأت حياتُه بها إلا أنَّه كان جبلاً شامخا شاما ثابتاً تتحطم الأهوالُ على صُخوره الصُّلبة المتينة العتيدة .

وهكذا العظماءُ الكبار في كلِّ زمان ومكان، تُنتهب كرامتُهم وتُهان أصولُهم وتُسفك دماؤهم وتُعذب أبدانهم لكنَّهم صامدون يرون المستقبل الباهر في انتظارهم حيث الفرحةُ التي تُسجَّلُ في سِجلِّ انتصاراتهم وإبداعاتهم.

لقد نشأت فى دنيا أمَّتنا مفاخرُ يزدانُ بها الدهر ويتأنَّق بها التاريخُ فهذا الشافعي رحمه الله كم تحمَّل من الألم والسهر والتغرُّب عن الأهل و الوطن حتى أصبح علَما فذًّا بارعاً من أعلام الدُّنيا ومناراتها الهاديةِ، فكتَب الرسالةَ ووضَع الأصُول وملأَ أرجاءَ الدُّنيا عِلما وعملا وقد مات بعدما نيَّف على الخمسين بقليل.

وكذا النوويُّ رحِمه الله كان يدأب في الدَّرس دأَباً شديداً لعلَّه لم يحدث لمثله مثلُه.

إذ يُروى أنَّه كان يَدرس في اليوم اثني عشر درسا فألَّف وصنَّف ودرَّس و ترك تُراثا كبيراً من الكُتب النافعات أمثال المجموع ورياض الصالحين وغيرها الكثير الكثير فنفع الله به كلَّ هذا النفع وهو الذى ارتَحل عن الدنيا فى الخامسة والأربعين من عمره.

هذا والأمثلة من نُبغاء أُمَّتنا وأصحاب الفضل كثيرةٌ لا تُحصى وحاضرةٌ لا تُنسى.

إنَّها الأوقاتُ المباركة الميمونة التي باركها الله لأصحابها ثم بُوركت من حِرص أصحابها عليها وضنِّهم بلحظة منها ومعرفتِهم قدرَ الزَّمان وقيمتَه العظيمة القديرةَ البالغة.

واستمع إلى هذا العلم الفذِّ البحرِ الكبير لمَّا عرَف قدر زمانه كيف قال و هو أبو الوليد الباجيُّ

إذا كنتُ أعلم عِلماً يقينا .. أن جميع حياتي كساعه .

فلم لا أكونُ ضنيناً بها .. وأجعلُها في صلاحٍ وطاعه.

وذلك أنَّها قليلةٌ قصيرةٌ لا تتحمَّل أن نُشتِّتها بين الأعمالِ اللاهيةِ و المُضيِّعة للأعمار.

فهل وَعيتَ شيئاً عن العظمةِ كيف تُكتسب وعن الرِّفعة كيف تُجتلب ؟

العُظماءُ غُرباءُ الحياةِ

إنَّ العظماء بهذه الأعاجيب التي قدَّموها وتلك الغرائب التى سطَّروها في قاموس الأحياء نالوا المنزلة السامية والمكانة السامقة عند خلق كثيرين من أرباب العقول وأصحاب الملكات، فلقد غزوا العقول بأفكارهمُ الحكيمة والقلوبَ بضمائرهم السليمة، وهيمنوا على النفوس هيمنة الملك على رعيته، والقائدِ على جُنده.. بيد أنَّهم لاقَوا من الظلم والاضطهاد ما لاقوا فعُذِّبوا وأهينوا وأخرجوا من ديارهم وشُرّدوا عن أوطانهم.

فاعتادوا أنهم حينما يرتدون ثياب المجد والبهاء ويلتحفون بالشموخ والعلاء ويكتسون جبة الأسمياء و الشرفاء سيحدث لهم ما حدث لسالفيهم ممن سلكوا المسلك وحازوا رفيع المنزلة فوُسموا من الألبَّاء المميزين باللقب البارز المعبر عن عناءهم وشقاءهم بأنهم وحدهم هم **"الغرباء"** غرباءُ الحياة.

إنَّهم الغرباء مجازا لا الغرباءُ على الحقيقة بل إن الذين فتنوهم وكالوا التُّهم ولفقوا لهم المناقص وألصقوا بهم المثالب هم بلا شك

الغرباء..

إنَّ الذى يتماشى مع سُنن الله الكونية ويسايرُها ليس هو الغريبَ الشاذَّ أبدا إنما يستحقُّ وصف الغُربة حقًّا من خالف هذه النواميس وتلك السُّننَ الأزلية التى عُهدت وشُوهدت بيِّنة ظاهرة يوم خرجنا من الأرحام إلى مُكابدة أهوال هذه الدنيا.

أليس اللهُ هو القائلَ " **فامشُوا في مناكبها وكُلوا من رزقه** " ؟!!

إذن قد علم أنَّ المخالف لهذه السنن المعادي لها هم أربابُ الكسل وأصحاب الخمول ودواليب الخيبة والخسران المبين.

لذا أقولها لك دون محاباة أو مُداجنة.. افعل ما يجعلك عظيما وتحمل ما يجرى عليك من أذية وقهر وقمع على أصل غربتك في هذه الدنيا ذات الزَّوال

وتذكر قولَ حبيبك صلى الله عليه وسلم " **طُوبى للغرباء** "

كن فى الدنيا غريبا .. إنَّ الغريب له طُوبى.

واعلم بأن عطاءه .. آتيك يا عبدُ قريبا.

وطالما اشتهيت أن تكون عظيما فلا غرو أن تكون غريبا.. نعم أطلقها صيحة تصدح بها فى كل ناحية :

" أن الذين كتبت لهم العظمةُ سواءً فى الدنيا أو في الآخرة عاشوا غرباء وماتوا كما عاشوا، وإنَّ سُنَّةَ الله جل جلاله جرتَ أنَّ العزَّةَ لا تُنال إلا بإذلال النفس وإخضاعها وذلك بملك زمامها و أنَّ الكرامةَ لا تُنالُ إلاَّ بمخالفتها فيما يحطُّ و يضع و محالفتها فيما يُسمي و يرفع، و كذا كلُّ شرف وما رَبَى ليس يُنال إلاَّ بالتسامي و الترافع و كلُّ درب فيه فضلٌ لا بدَّ أن يعقبه عذل وملام إلم يكن حقدٌ و انتقام ."

أنواع العظماء

إنَّ العظمة الجديرة بالذكر المستحقةَ للمعاناة والتَّعب هى تلك التي من خلالها تتحقق السعادة وتتوفر القيادة وما كان لأحد وما يكون له من هذين كما كان للعظيم الأكبر ذي المقام الأبهر محمد صلَّى الله عليه وسلم.. فلقد كان قائدا بارعاً كميا مِغوارا باسلاً حكيما ولقد حاز إزاء ذلك ما قدر الله عز وجل له من السعادة مالم يقدره لغيره من الخلائق كلها فكان هو الأحظى بالمقام الرفيع في مقدِّمة هؤلاء الذين كان لهم شِقص من القيادة الرشيدة والسعادة المستديمة.

إن العظماء لا يخوضون دُروب السعادة كلهم بل البعض منهم لابس العيش فى تعاسة قصوى كما لابس البعض الآخر العيش في سعادة مثلى.

وإن أرقاهم سُموا، وأعلاهم فضلا من عانق السعادة في دار الفناء والأبد وهؤلاء لا يمكن أن يكون لهم السعادتان إلا في أرجاء الإسلام العامرة بالأخلاق الرَّحبة بالمُثل والقدُوات ثم بتثنيتهم

الإخلاصَ لربِّهم والمناضلةَ عن شرعته الهادية الناصعة.

لذا كانت منزلة أمتنا هى المنزلة الماجدةَ الرائدة وكان غيرُها عالة عليها في كل شأن نبيل ومسلك رفيع.

فمن حيا الحياة مسلما قانتا لله خاضعا وصبر له فيما يُحبُّ وعمَّا يكره كان موفقا إلى كل خير وبرٍّ وكانت السعادة إليه أدنى من ثوبه الذى يسجي بدنه بل أدنى إليه من ذلك إذ هي تسكن في أعماق قلبه ملامسة شِغافه.

وكما قال الله تعالى " **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيبة** "

تلك الحياة الطيبة هى الحياة السعيدة العظيمة المفعمةُ بالأمن والأمان والدَّعة.

إن الذين وازنوا بين الدنيا والآخرة بتقديمهم ما ينفع البشرية ويكون نصرة لدين الله عز وجل ويرجع نفعه عليهم في الدار الآخرة إعزازاً لهم فيها.. هم من تناول الفلاحَ من أعلى نقطة فيه فكانوا قادة في الدنيا وسادة في الآخرة.

وعلى الجانب الآخر هنالك من اقتصرت على الدنيا عظمته وانتهت فيها سعادته هؤلاء من أمُّوا الدنيا راغبين فيها ففتح الله لهم

من خزائنها وحباهم من عطاياها فكانت قيمتهم الدنيا وما حصلوا فيها من فضل وعظمة وما قدَّموه من خدمة للبشرية لا سوى.

فجزاهم الله فتحا على جُهودهم الَّتي بذلوا فأعطى وأفاض.

إن هؤلاء هم عظماء الدنيا فقط تقتصرُ عليها عظمتهم ولا يحق لنا أن نبخس أحدا منهم حقا من قبيل أنه لا ينتسب إلى الإسلام إنما الإنصاف أن نقول :أن كلَّ أحد ينتسب إلى أي دين أو لا ينتسب إلى دين أصلا قيمته تكمن جلية لا فيما قدَّم لنفسه.. بل فيما قدَّم للإنسانية جمعاء.. وهم بلا ريب ليس لهم في الآخرة نصيبٌ يُذكر ولا حظٌ يُوفَّى لهم ولا يكافؤونَ على أعمالهم إلا في حياتهم الدنيا فكانت لهم العظمة فيها والسعادة أو اللا سعادة.

وهذا هو القسم الثاني من أقسام العظماء.

وهناك صنف آخر من المسلمين عملوا للدنيا والآخرة معا.. بيد أنَّهم قدَّموا للدُّنيا نَصيبها الأكبرَ وبَخَسوا حقَّ أنفسهم في الآخرة فكان خَلاقُهم منها قليلا.. فهم عظماء الدنيا بقدر ما قدَّموا لها وعظماء الآخرة بقدر ما قدَّموا لها.

وصنف آخر منهم قصَر على الدنيا همَّته فقدم لها وأهمل الآخرة فضيَّعه إهمالها.. وهم من أهل التعاسة والشقاوة في الآخرة إلا أن

يتجاوز الله عنهم ويعفو.. لأنهم محَّضوا أنفسهم للدنيا لاغير فنسأل الله لهم النجاة من هلاكٍ مُبير وعذاب مُستطير.

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم [**من كانتَ الدنيا همَّه جعل اللّهُ فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شملَه، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما كُتب له**] لذا فإنَّني لأصحاب النبوغ وأربابِ الكَياسة ناصحٌ أن يجعلوا همَّهم وعزمَهم في طلب الآخَرة والسعي الجادِّ لها والمبادرة في اللِّحاق برَكب الصَّالحين الذين مَضَوا إلى حَومَة السلامة والأمن من رب غفور رحيم.

[ومن كانتَ الآخرةَ همَّه.. جعلَ اللّه غِناه في قَلبه ,وجَمَع عليه شمله، وأتته الدنيا وهى راغمةٌ]

إنَّ المرء الذى هذا شأنُه إذا طبَّق هذا الكلام النبوي الشريف بحذافيره لمُؤهلٌ أن يدخل من أبواب العُظماء كلها لأنه كما سبق وقلنا قد وازن بين الدنيا والآخرة فلم يدع دنياه ولم يضيع أخراه وهذه المنزلة هى التى كان يسير عليها السلف الصالحون من الثلاثة القرون وغيرهم ممن رغب العلياء في الدارين." **رضى الله عنهم ورضوا عنه** "

والله عز وجل يقول في الأصناف التى سبقت [**منكم من يريد الدنيا**

ومنكم من يريد الآخرة]

فيا لها من غاية خسيسة وضيعة لمن أراد الدنيا وفرَّغ قلبه لها ونسي الآخرة وفرغ قلبه منها..ويا لها من غاية عالية نبيلة لهؤلاء القوم الذين رغبوا الدار الآخرة دارَ العُلا والمجدِ الحقيقي ولم ينسَوا حظَّهم من هذه الدنيا فقدَروا لها قدرَها.

من هنا يسعني أن أنبه على أن العظماء يغرسون أحلامهم وآمالهم في تربتهم كما أن ذوى السفاهة يفعلون ذلك أيضاً.. لكن شتَّان شتَّان بين تُربة تروى بالهمة والعمل وأخرى تروى بالتواني والكسل.

فنبتة العظماء نبتة خير وفضل، ونبتة السفهاء نبتة سوء و شر.

ولتعلم أنَّه [**لا خيرَ في طالب محَّض عزمه للدنيا ونسيَ الآخرة، ولا شرَّ في طالبٍ محَّض عزمه للآخرة وأخذَ كَفافه من الدنيا.]**

أَعِد على ذهنك هذه الكلمات كل يوم.. ماذا قدمتُ من الخير ؟ وماذا فاتنى منه ؟

قم وانهض فإن الأجل إَن حلَّ أعزَّ أو أذلَّ ومن قدَّم خيراً قدَّم الله إليه خير العزة، ومن قدم شرا قدم الله إليه شرَّ الذِّلة.

إذا هبَّ الفتى للعلياء يطلبُها.. فليُدم السعي لها أو يقْعدن.

فإذا كنت من مريدي الغلبةِ على الدُّنيا وأهواءِها وإيقاع الهزيمة بها، فكن مُتزوداً من زاد الآخرة، فالغلبةُ عليها تكون بأخَذ البلاغ منها وإهمال فضلها وعدم إعارتها اهتماما بها.

أما إن شغلت لُبَّك وتملَّكت قلبك وسلبت منك فؤادك، تركتك فقيرا حسيرا.. تغضبُ لما فاتك منها وتقلق على آتيها إليك وتحسد غيرك على ما ملَّكه الله فيها وليس هذا أبدا من شيم العظماء ولا من آداب الفضلاء الذين يَهبُّون إلى مقاصدِهم بخُطوات ثابتة واثقة منتظمة.

ألوان العظمة

العظمة على أربعةِ ألوان وهي :

أولا : عظمةُ انتساب :

كانتساب المسلم بعبوديته إلى ربِّه سُبحانه وانتسابه لدينه ولنبيه صلى الله عليه وسلم فهو وإن كان عاصياً فارعاً في عَصيانه إلا أنَّه أفضلُ حالاً بلا شك من المنتسب إلى عبادة البقر والحجر.. وهذا انتساب الديانة، ولكلِّ أحد أن ينتسب إلى ما يفتخر بنسبته إليه.. ولكن تبقى المفخرة الحقيقية كائنة وبجدارة لأبناء الدين الحق دين السعادة العظمى " الإسلام "

أما عن انتساب الرجل إلى قومه وعصبته ليحتمى بهم، ويبطش برِيحهم فهذا انتساب الصيانة.

ثانيا : عظمة احتساب :

وتلك عظمة الأغرار المغبونين الذين تمكنت من عقولهم فساروا في كل فجٍّ ينعِقون بها ويهذون ويسردون الأحاديث عن أنفسهم

سردا فاحشا وفي حُسبانهم أنهم يُحسنون صُنعا وما دَرَوا أنَّهم أخذُوا حتى لكأنَّ ما بالدنيا كلها احدا قاربهم فضلا وساماهم منزلاً فترى الواحد منهم مزهُوًّا بنفسه متعجرفاً مُختالا يَتيه على الخلق بما لم يكن له في إحداثه يد.. مفتخرا بما ظنه من ظن كاذب متخرَّصا.. مستنكفاً بهوكه وحَماقته.

وإنَّها في الحقيقة عظمةٌ مدعوةٌ باطلةٌ لا أصل لها ولا أساسَ ولا عمد.

ليس من ادَّعى شيئًا كمن .. كان للشيء كُفئاً وأهلا.

ولا ممتدحٌ بما ليس فيه .. كمن ذُمَّ به سَفَها وجَهلا.

ثالثا : عظمة اكتساب :

وهذه خاصة بأهل الجِدِّ والمبادرات وانتهازِ الفُرَص واغتنام الأيام والليالي بالذي يُيَسر عليهم في المُقبل منها إنجازَ أعمالهم وتحقيق آمالهم فهي مكتسبة صِرفة بجد واجتهاد وذاتية محضة، وهى التى نحن بصدد الحديث عنها في صفحات هذا الكتاب.

رابعا :عظمة إيهاب :

وهي منزلةٌ يختصُّ الله عز وجل لها من ارتضاه من خلقه فهي عطيَّة ربانيةٌ خالصةٌ.. فالله يمنُّ على من يشاءُ من عباده.. يختارُ من

يهبُه ما عليه تكون منافعُهم وتقوم مصالحُهم.

ولقد اختار اللهُ للدنيا من يصلح لها واختار للدين من يصلح له وحكمته في ذلك سابقةٌ.. **" لا يُسأل عما يفعل "**

" أليس الله بأحكم الحاكمين ".

بلى هو أحكم الحاكمين لذا كان الأمر مطالَباً فيه بالرِّضَا.. فمَن رَضِيَ فله الرِّضا ومن سخِط فله السُّخطُ.

عظمة الأمة الإسلامية

إن الله عز وجل قد حبى هذه الأمة الإسلامية بخصائص تجعل منها أن تكون متحررة حرية تامة بسيادتها على الأمم جميعا فلقد أخبر سبحانه فى كتابه العزيز فنوَّه بمكانة أمة الإسلام بين الأمم فجعلها في أشرف مكانة تُحاز.. ضابطا إياها بضوابط وأسباب.

فقال عنها : **"كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"**

أى أنتم أفضل أمة أخرجت من بين الأمم جميعا من قبل الله عز وجل من الظلمات الحالكة بالذنوب إلى الأنوار المالكة للقلوب.

وذلك مِن الله مِن أكبر أفضاله عليكم لكن هذا الفضل لن يدوم لكم أبدا إلا إذا عملتم على شكر الله عزو جل عليه المُتمثِّل في بذلكم الغالي والنفيس من أجل إعلاء كلمته وتكثير أمته وذلك يكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله إذ ليس ينفع الخير إلا بالإيمان الخالص لله رب العالمين.

وليس للنفوس العظيمة التي آمنت بالله أن تقعد مجانبة دعاءَ

الناس إلى الدخول في هذا الدين القيم المبارك وتثبيت أبناءِه عليه وإرشاد الضالين عنه إليه.

بهذه الأسباب تتولد النتائج فتتحقق السيادة وتتفرَّد القيادة ويصبح الشأن العظيم لها وتصير الكلمة منها مُعتداً بها عند كل أحد ذي قدر أو عَدمه.

أما إذا خَفرت العهد وأخذت تلهو بالدنيا وتلعب.. فالذلة والهوان والخذلان وليس سوى ذلك.

لذا قال الحبيب صلى الله عليه وسلم {**والذى نفسي بيده لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثُمَّ تدعُونه فلا يُستجابُ لكم**}

وإنَّ من أشدِّ العجب أن ترى الرجل ينهى عن المنكر الذى تعقُبه المضرَّة وتعمُّ به البلوى ولا ينتهي هو عنه ويأمر بالمعروف ويحثُ عليه وهو دارٍ دِراية كبيرة ما يجلبُه من نفع وما يتكاثر به من خير لكنه من أبعدِ الناس امتثالا به وعملا، وتلك طامَّة كُبرى تتنزَّل بها الدوَاهِي العِظام والكوائن الكبار.

ولقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى سُوء عاقبة من ينهى ويأتي ويأمر ويدع.. فقال : {**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النَّار،**

فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون : يا فلان، مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ,وأنهى عن المنكر وآتيه }

إنَّ ما يَحدثُ لنا الآن من افتتان بالدنيا وزخرفها وأمراض فاتكة وأوبئة مهلكة كل هذا من بعدنا عن الهدى المحمدي المتين وانشغالنا بالتقاليد الغربيَة المائرة القميئة، وامتِلاء قُلوبنا بالسَفاسِف والتُرهات.. بَعدما كان الغربُ بأكمله يجلس على عتبات ديار الإسلام يستلقم منهم القدر اليسير من العلم لا أقول الذى يصير به منافسا بل ما يمحو به من جهله ما يجعله يمشي بين الخلق غير مطرق بصره يتفحَّصُ الأرض من الخزي والعار.

ولكن..

لا تنظرن النَّصر في.. جيل قلد الغرب تقليدا .

ولن يرفع الله لنا رأسا إلا حالما نعود إلى العهد الذى أمرنا به أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر وليكن بدء ذلك لأنفسنا أن نتقى الله عز وجل وأن يكون بذُكرها دائما قوله سبحانه { **ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** }

فكفى والله ما أصابنا من سُوء وأذى بسبب ذنوبنا ومعاصينا وابتعادنا عن الدين القويم والنهج المستقيم.

ومما يجعل أمتنا أعظم الأمم قاطبة هو التمسُّك بالشَّرع الحنيف والهدي الشَّريف من خلال تحقيق الكفر بالطَّاغوت وغيِّه والإيمانِ بالله العظيم وشرعه " فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها "ويأتي هذا التمسُّك وليس يجئ بسوى ذلك بالمتابعة الدقيقة للنبي صلى الله عليه وسلم في كلِّ ما ينبغي أن يُتَّبع فيه.. لذلك كان هذا الأمر متعلقا تمام التعلق بمحبة العبد لربِّه فمن ادَّعى المحبة كان مختبرا بالمتابعة " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم " فمتى يحبُّنا الله ويغفرُ لنا إلَّا إذا لم يعد هناك باب من أبواب العظمة لم نتقاعس عن الولوج منه و البراعة في سبيله.

وكذا ممَّا يجعلها أمة لها الغايةُ والكمالُ في العظمة بين سائر الأمم.. تدعيمُ الأخوة وتقوية الأواصر وتوطيدُ العلائق بين أبناءها من التعاون والمحبة والإيثار وما شابه

قال تعالى "**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** "

إنَّه نداء الحقِّ من الحقِّ سبحانه، نداء مفعم بالنور، مكتظٌّ بالأُلفة

والمودة والتراحم بين أبناء الدِّين الواحد والعقيدة الواحدة.

إنَّ الاعتصام منتهى الترابط والاتِّحاد عبَّر اللهُ عزوجلَّ به ليُرشدنا أنَّنا وإن تبَالَغ اختلافُنا في فُرَوع ديننا فلنتمسَّك تمسُّكا شديداً بأُصولِه وثوابتِه، وهل جيئَت الأمةُ إلَّا من خلال الفُرقة والتَّنافرِ لذا قال تعالى بعد أمرِه إيَّانا باعتصامنا بحبله واتِّحادنا تحت رايةَ دينه وسيرنا خلف قائدِنا الأوحد " ولا تفرَّقوا "ومعلومٌ أن التفرق ضعف، وأي ضعف وخوار يفُتُّ في عضد الأمة حينما تقوى شوكة عدوها وتشتد وتنتشي أنفسهم بالتناحر بيننا والتشاحن والتباغض وتتغذى على آلامنا سرورا وحبورا وسعادةً تغمرها و ترويها ريًّا، فلنتذكر ذلك جيدا ولنعلم يقيناً أن عظمتنا في وحدتنا واتحادنا واعتصامنا بكتاب الله عزوجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن عزتنا في ظلال هذا الدين لا في ظلال غيره البتة.

[نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمتى ابتغينا العزة في غيره أذلَّنا الله]

ومن هنا كان الواجب المحتوم على أفراد أمتنا العظيمة الكبير منها والصغير ألا نجعل لأعدائنا نصيبا في حياتنا من تقليد أجوف ومشابهة عمياء ومضاهاة قبيحة شنعاء، وأن نُترع كل جوانب حياتنا بسنة النبي صلى الله عليه وسلم فإن الخير كله فيها وبها النزاهة والشرف والرفعة والعلاء، والذليل بحق من رغب العزة

في غير بابها، والعزيز من اعتز بدينه الذى هو دين العزيز سبحانه

" من كان يريد العزة فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين "

ومن العزة أن اختصَّ الله هذه الأمة وحدها من بين الأمم بالنسبة إليه فأيُّ شرفٍ وأي ُّعزٍ هذا **[إنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون]**

فلنصن الكرامة ولنحم عز الإمامة، ولنكن على الخير شامة إلى يوم القيامة، يوم نرجع إلى الله سبحانه وتعالى.

العظمة الحقيقية في الإسلام

إنَّ أعظم الخلق قاطبةً عند الله عزوجل هم أهل الإسلام الدينِ التمام الذى أتمه اللهُ وأكمله، وبالمحاسن والمزاين جمَّله، وإنَّ أعظمَ أهل الإسلام فضلًا ومكانة هم الذين قدَّموا للآخرة وسعوا إليها مخلصين منيبين.

والإسلام في ذاته عظيم إذ الشيء يعظم بنسبته، وهو دين الله الخاتمُ فكان الكمال لعظمته بعظمة من وضعه لخلقه وبيَّنه.

قال الملك سبحانه { **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** }

فهو الدين الكامل والشرع الشامل والنعمة الوافية والديانة الكافية والذى لا يُرضى سواه، ويعني ذلك أنه لا قدر يذكر ولا قيمة لكل من اعتنق غيره وابتغى سواه كائناً من كان.

" **ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** "

فلا قبول لعمل عاملٍ لا يَمُتُّ للإسلام بصلة، وإن كان مخلصا في تقديم عمله متقنا إياه من كل وجه، ليس مُبتغيا عليه مالا ولا مُطالبا به وجاهة.

ومن عظمة الإسلام أنَّه كاسمه تسليمٌ لله سبحانه، فلا يحمل همًّا على دنيا ولا قلقا ولا اضطراباً من يُساكن الإسلام رُوحه مُتخللاً سُويداء قلبه قابعاً في أغوار نفسه.. وكيف يحمل الهمَّ من ديدنُه كلَّ صباح ومساء " **رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا " فهو راضٍ مسلمٌ مخبتٌ لجلال ربه وعظمته، راجٍ عفوَه وكرامتَه، مُسلِّم له في كل قضاءه وقدره، راضٍ بأحكامه في كل ما يُجريه عليه** ".

عُلم من ذلك أنَّ الإسلام له العظمة الخالدة والعزة الباقية وأنَّه الدين الذى لا يُبارى والشريعةُ التى لا تتناقض ولا تتلاشى وأنَّ العظمة الحقيقيةَ في أكنافه وتحت رايته الغرَّاء وأنَّ أحداً لا يُمكن ان يُهضم حقا في ظلَّه فهو يَعرف الحق لأهله ويُعطى كل ذي حقٍّ حقَّه وأن السماحة كلَّها واليسرَ في أثناءه و بين تلافيف شريعته " **يريد الله بكم اليسر** "

ألا فلنتذكر ولنعتبر ولنرجع إلى مجدنا الحقيق وإلى عزنا النضير التليد.

من أين تكون البداية

بعد الخوض في الحديث عن إرادة الإنسان وطموحه وعظمته الحقيقية... نتجاوز ذلك بعد أن بدا من الطريق إلى العظمة شيءٌ إلى الإجابة عن السؤال الثاني وهو" من أين يكون البدء ؟"

إنَّ المرء الراغب بصدق في المنزلة الرفيعة السامية عندما يعلم تماما ماذا يريد فلقد تذرَّع كثيرا في أغوار طريقه، واستطاع أن يعبر القدر الكبير منه والذي يأتى بداهة بعد تحصيل الجواب اللَّازم عن السؤال السابق، أن يقول لنفسه " من أين أبدأ.؟

"الكثير منا يمضي في طريق ما من الطُّرُق المرجوِّ له فيها النجاحُ والفلاح ثم ينتهى إلى غير فائدة يكتسبها من رحلته التى بدأ.

وجواب ذلك أنَّ هذا السائر من المؤكَّد أنه لم يخُض الطَّريق من بدايته فربما بدأه من مُنتصفه أو من أى نقطة أخرى سوى نقطة البداية المحددة بداهةً لكل راغب لسيره فيه.. وربما سار فيه من بدايته لكنه ضلَّ عن تعاليم سيره وإرشادات عُبوره.

من أين أبدأ ؟

ذلكم هو السؤال الذى حيَّر الألباب وفطَّر القلوب وأرَّق الجُنوب وأسهد العيون.

كم من رجل نابه ذكى قادر.. يَحوز الكثير مما يُؤهلُه إلى مَرامه ويُطلقه إلى غايته.. لكنَّ المأزق والعقبة أنه لا يدري من أين يبدأ.

ولكم فنت من أعمار وانقضت من آجال كيما يقف أصحابها على جواب يحسُن لهذا السؤال بيد أنَّهم اصطحبوا معهم في قبورهم ما كانوا يُخطِّطون لفعله لو أنهم وجدوا حلاًّ لهذه العويصة اليافعة كما كانوا يَتراءونها.

أيها الباحث.. يا من تبحث عن الجواب بعد أن علمت المراد وطَفقت تُهاجر في أعماق نفسك باحثا منقِّبا علَّك تُلفي من يُهوِّن عليك أمرَ حيرَتك ويُثلج صدرك بكلمة تُقلِّل من هذه الأوهام والهواجس التى تُخامر ذهنك وتدور بخَلَدك وتندمج بأفكارك حتى أضحت عائقاً جسيماً يَنيض بداخلك.

أقول لك.. لم هذه الحيرةُ المهلكة ؟ ولم هذا الإضناء المودي بمطالبك ومذاهبك ؟ هوِّن عليك فإن الجواب كائن بين يديك ليس يحتاج آلةً ساحرة ولا مُنجِّما يتكهَن بالغيب المزعوم من قِبله.

هذا الجواب هو :

" ابدأ من حيث تقف وبما تملك وبما تجيد ".

اعلم أنَّ الإنسان الجادَّ هو الذي يبدأ حياته العظيمة من صحراء قاحلةٍ مُجدبة إلى عَمارة شامخة باهرة.. وحينما أقول ابدأ من حيث تقف فلا ينبغي أبداً على من علم خفايا الطريق وخباياه أن يرجع سيره فيه من أوله بل الحقُّ حينئذٍ أن يبدأ من حيث ما وقف عنده حتى لا يكون بدؤه من الأصل باباً يتَّسع لإهدار وقته وإضاعة ثمين زمانه.

ومن الناس من غَبَن نفسه فظلَّ واقفاً عند أول الطريق لا يتزحزحُ عنه قدراً.. فمِثل هذا لا ينبغي أن نقولَ له ابدأ من نقطةٍ أُخرى وإنما يبدأُ الطريق من نقطة البداية مرة أخرى وإن كان قد قطع شوطاً لا بأس به في هذا السبيل.

ومن الناس من يظلُّ يقاوم بجِد ويتحدَّى باجتهاد حتى يتيسر له أن يملك الكثير والجمَّ ثم ها هو في لحظة واحدة يجد كلَّ هذا الذي ظلَّ يجمع من عزٍّ في سنوات مضت من عمره الزاكي قد تلاشى أمام عينيه فانياً وكان شيئاً لم يكن **" كان شيئاً كان ثم انقضى "**

لكن هذاالرجل الجبلُ العظيمُ الرَّاسخ لم يُثنه عن مُراده مثن ولو أن كان يراه حياته التى يحيا.. بل يبدأ من الصفر بل من وراء ذلك.

كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأرضاه.. وسيأتى الكلام على حاله هذه من كفاح وفلاح

بإذن الله تعالى.

لذا البادئُ بنجاح هو الذى يبدأ مع نِسيانٍ كاملٍ لماضيه و تعايشٍ تامٍّ مع حاضره الذىً هو كائنٌ فيه ولا يعيش أبداً في ظِلال أوهامٍ وخيالاتٍ مستحيلةٍ وليس يرى أبداً أنَّ هذه الأوهامَ مجديةٌ بحالٍ بل هو يراها مدمِّرة لكِيانه كلِّه من مَبدءه إلى منتهاه.

إذا كنتَ ترى الأوهام مجديةً

فلستَ أراك إلَّا بلا جَدوى.

حقيقةً... أنَّ الإنسان الذى يرى النفع في صَيرورته في خِضمِّ هذه الأوهام هو إنسانٌ فاشل عاطلٌ لا جدوى به ولا نفع لا لذاته ولا لغيره.

وهو أى الإنسانُ العظيم لا ينتظر الحظَّ يُحالفه بهذا المفهوم الخاطئ الذى ترسَّخ فى الأذهان عنه بل يكدُّ ويجتهد ويُكافح حتى يُلاحظ ويرى أمام عينيه ما أراد محقَّقا ويعلمَ جيّدا أنّ الذى يتنبأ لنفسه بمستقبل باهر ولم يقم إليه بأسبابه كعجوز يريد أن يصعد جبلا بالغا فى سماقته وشموخه وقد صار طاعناً فى السن وأصبح

فى غاية الوهن.. فهذا المتنبئ دجالٌ كبير وكذوبٌ مستطير في دجَله وكذبه.

إنَّ الحظ هو النصيب المتوائم مع ما بُذل من نصيب الجهد والتعب وإن كان ثَمَّ فشلٌ سابق فلا يحاول هذا المبتدء مرة أخرى بنفس الخطوات إنما يعالج ويُقوِّم فإنه من يمضى بنفس الطريقة والخطوات سيصل فى النهاية إلى ذات النتيجة.

فمن أجل الحصول على نتيجة مختلفة يفتقر حينها إلى تغيير الخُطوات أو تعديلها.

"إبدأ من حيث تقف ودعك من التوانى والتأجيل فإن المرء يظل يؤجِّل حتى يُفيقَ فيعجل فلا يلبث إلا أن يزِل".

هكذا يكون حالُ المؤجلين المرجئين بداياتهم إلى غد ولكنَّ هذا الغدَ عندهم لا مجيء له أبدا ولا رجاء فى مجيئه وقدومه حتى يتهيئوا له تمام التهيؤ.

لكم أنهى التسويف من قوّة وكم جلب من وَتيرة وفترة وكم بتر من مِراس وفتوة وكم أفنى من نظرة وفكرة .. فأهل التسويف فى الحياة هم أهل الجُبن على الحقيقة فهم يخافون من الفعل ويخجلون من ملابسة الخطأ فيلجأون الى التسويف والتأجيل بحُجّة أنهم

ليسوا على جاهزية الآن للقيام بالعمل المراد ولا أَثَلةٍ لأداءه.

فابدأ من حيث تقف وبما تملك وبما تجيد واصنع صنيع عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فإنه لما هاجر الى المدينة المنورة وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الرَّبيع وقد عرض عليه سعدٌ المال والدَّار والزَّوجة فأبى كل هذا وقال له كلمة يعرف منطقها وأعباءها التي تجيء على إثرها ألا و إنها : (**دُلّنى على السُّوق**).. هذه الكلمة العظيمة الجزلة التي أطلقها عبد الرحمن بن عوف من قلب حارٍّ نشيط حيث لم يكن لِيقبلَ قسمة تستنزف جُهد صاحبه رغم ما اكتنفه من الرضا حيال هذا الأمر وكان هو السابقَ له فى عرضه عليه ما لو كان غيرُه مكانه لانتهزها فرصةً عمرية كبرى.. لكنها أنفةُ النّفس وعزّة الضّمير ونُبلُ الشُّعور.

فهدر قائلا.." دُلَّني على السُّوق " ليتنا نتعلَّم ذلك..

" أنَّ العظمة الحقيقية تكون جليةً في الخُروج من قماقم الوحدة وأسوار العُزلة إلى أسواق الحياة المختلفة المختلطة.. فهذا فى سوق العلم وهذا في سوق الجهاد وهذا في سوق السعي على الرزق واستجلاب القُوت.. كلٌّ منا له سوقه الذى يتناسب وجهودَه وقدراتِه.. لكن الذى يتعرَّف ذلك ويعيه قليلٌ قليلٌ.. إنَّهم النُّبغاء الذين تملَّكوا زمام الحياة فقادوها تجاه ما أرادوا ورغبوا فانقادت لهم طائعةً مستكينةً خاضعةً.

انظر إلى هذا الفذِّ وهو يُحرِّك شفتيه بهذه الكلمات التي أُرِّخت في ثنايا صفحات تاريخ العظماء

والعظماءِ حقاً.

ماذا كان الرجل ليملك من قُوت الحياة حينها.. رجلٌ هجر ماله وداره وضيعتَه وكلَّ ما ملك وجمع من حُطام الدنيا.. ثُمّ ماذا ؟

ثُمّ باع ذلك كلَّه لأجل الله عزوجل دون خَوف أو وَجل قائلاً هذه الكلمات بيُسر وسُهولة عارمين.. دُلَّنى على السُّوق.. إنَّها رَوعة النفس الحيية وجلالةُ الضمائر العلية.

فمن أي شيء صِيغت هِمَّتَي هذين النبيلين اللذين يشرُف بذكرهما قلمي.

إنَّه لشرفٌ وأىّ شرفٍ أن أكتب اسميهما وألتقط مَن حياتيهما هذه الصورة اللامعة البرَّاقة العظيمة.

فما هذا السخاءُ يا بن الربيع وما تلك العفةُ يا بن عوف. ؟

فهل لك أن تتخيل معي رجلاً خرج إلى السوق بأَقِطٍ وسَمن.. فطفِق يبيع ويشتري ويربح ثم ارتحَل من الدنيا وله منَ الثَّروة ما يُقسَّم بالفُؤوس.

لقد ربح عزَّة نفسه أولاً ولقد ربح أموالا باهظة سخَّر الكثير منها لخدمة الإسلام ومَدِّه بها مدًّاً يُثنى عنه سطوات أعداءه وفَجَرَات غدرَاتِهم.

رجلٌ غدى من أثرى أثرياء العالم بداية من قِطَع جُبنٍ قليلة إلى نهايةٍ غمرت حياته الخالدة سعادة وأجورا زاخرة تُساقُ إلَيه في يومٍ هو أَحوجُ ما يكون إليها.

فهلا تعلمنا العفَّة من عفَّته ؟.. و العزَّة من عزَّته ؟..

وكيف يتسنى لنا أن نسخر ما نملك فى خدمة ديننا الحنيف؟

.. إن الأمر جدٌّ صعيب، ليس بالهين أن نرفض عرضاً ذهبيا في مشاطرة مالية سكنية زوجية جادة لا هُراء فيها ولا مِزاح بله ما تُدره على قابلها من الراحة والدعة..

لكنَّه كان عرضا هينا فى عيني خريج من مدرسة النبوة.. إنه رمز التاجر النشيط القادر على صناعة الشىء العظيم الفاره من البداية المنعدمة الصِّفرية.

" يمكن أن يُفعل المستحيل بقليل من الممكن..كما يمكن أن يفعل الممكن بقليل من الإرادة "

إنَّ كلمة دُلَّني هذه تُوحِي إلى النُّفوس الجبانة الخوَارة بالشجاعةِ

والجسارةِ في مُجابهةٍ جادَّة لِأعباء الحياة ومُواجهة المصَاعب والدَّواهي التي تستقرُ في كُنهها وحقيقتِها استقراراً ليس مُنفكاَ عنها أبد الآباد.

وذلك يكون بروح وثَّابة مستعصية متينة فإذا أُغلق باب في وجهك فاطلب آخر وآخر وكن متذكِّرا دائماً صدى هذه الكلمة الرائعة الجميلة " دُلَّني ".

إنها من أجلِّ الكلمات التى نُبِسَ بها في مَيدان الحياةِ لأنَّها ترجمةٌ عمليةٌ للعصاميةِ الذَّاتية البحتة وهي واقعةٌ من جرَّاء حكمةِ القومِ..

" بدلا من أن تُعطيَني كلَّ يَومٍ سمكةً.. علِّمنى كيف أصطادُ "

هكذا سار سيد العصاميات سيدُنا عبدُ الرَّحمن بنُ عَوف هذا العلَمُ الشامخُ يُطبِّق أحرف هذه الحكمة في طريق عظمته حرفاً حرفاً.. فهو لم يَطلب من سعد بن الربيع أن يُعطيه كل يوم مبلغا يتبلغ به في لأواء الحياة ومصاعبها حتى يصيرَ غنياً فيردَّ إليه ما تعاطاه منه.. لكنَّه الإباءُ إباء الشخص العصامي الذى يتكئ على عزيمته ويُعرِّج على قدرته.

هكذا ينبغي على النُّخبة الفاضلة من أبناء المسلمين أن يَسعَوا جاهدين في إنفاذ مطامحهم وإمضاء مطامعهم من نُصرة دينهم ونُصرة قضاياهم على أرض هذه الدنيا..

والسائغ أنه بدلا من أن نصبح عيالا على الخلق نتلمَّس منهم صدقة كل يوم لا بد علينا أن نصير قادة للعالم كله نَفرُّ من شوائك الضعف إلى حُصون القُدرة.

لكن ليُعلم أن هذا لن يسنح لنا من جراء كلمة دُلني فقط.. بل يحتاج إلى حركة وفِعال صادقة للتعبير عن صدق هذه الكلمة.

ومن أجل ذلك أقول.. أن الحياة الدنيا من أتى إليها وما أضنته وأرهقته من مَجاهد وبَلايا..

ما من أحد إلَّا وقد استدعته إلى مأدُبة رزاياها ومناغِصها الكبيرة المتضخِّمة فكلٌّ يناله من الألم بقدر مراده ومبتغاه.

من هنا نعلم.. أن الحياة لا تحتاج إلى كلمة دلني فقط بل إلى الحركة والفعال والسعي للتعبير عن صدق هذه الكلمة.

ألم يقل ربنا سبحانه وتعالى "**لقد خلقنا الإنسان فى كبد**" ولقد حقَّق الكلام باللَّام وقد.. يعني أن هذا لازمٌ لابن آدم كلِّ بن آدم أن يعيش فى كَبَد وعنَت ومشقَّة حتى آخرِ لحظة يقضيها فى رحاب هذه الحياة على سطح هذه الأرض.

فكان هذا الكبدُ هو القالبَ الذى يصاحبنا ملابساً لنا إلى آخر رمق فى هذه الدنيا.

فالواجب المحتَّم علينا جميعا أن نُباشر ذلك برَحابة صدر وسِعة أُفق وأن نمضى مع سنة الحياة الدائمة الباقية أبداً موافقة لها وملائمة معها وأن نُحصِّل مآربنا فيها بحركة حكيمة عاقلة لا بمجازفة مفرغة من الأناة والرَّوية والبصيرة والتَّعقُّل.

لذا حثَّنا الله عز وجلَّ أن نقوم بأمورنا المرجوّة كما تقتضيه الحكمة ويتطلبه الواجب فقال " فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه " فإنَّه من مشى فى المناكب أكل من الأطايب ومن قعد عن المشى صاحبته العَيلة ولازمته الفاقة.

إنه طريق محفوفٌ بالمكاره مُحاصَر بالنواكب.. وسيجد الإنسان في مشيه يطلبُ العُلا من يرميه بكلمة جائرة ونظرة مائرة والواجب عليه أن يصبر ويحتسب ويمضي طريقه إلى حيث نهايته فالسعي على الرِّزق عبادة من أجلِّ العبادات و رزق وهبة من أجلِّ الأرزاق والهبات التي يبثُّها العبدُ الهمَّة السَّامية والعزيمة القادرة المُتمكِّنة..

هذا السَّعي فيه الصبر على طلبه والصبر على أذى الناس وفيه التوكل على ربِّ النَّاس وحسن الظن به والاستعانةُ والسؤالُ له.. لذا ستجد أننا فى كل درب من دُروب الحياة ومجال من مجالاتها نعبد الله فيه بأكثرَ من عبادة " **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** "

أخي الفاضل :

ألا زلت تذكر كلمة عبد الرحمن الشهيرة المنيرة الوضَّاءة الصانعة التي كانت هى الدافعَ له فى أرجاء هذه السوق الدنيوية التي على ضيقها كانت رحبة فسيحة فيحاء .. بل كان كلما تذكر هذه الكلمة منحته شُحنة كبيرة عظيمة من الشِّرَّة المستديمة والنهم الشديد لصناعة الذات وبناء المجد السامق الرفيع.

لكم نفتقر نحن المسلمون فى زماننا إلى الكثير والكثير من أمثال عبد الرحمن بن عوف تلك الصورةُ الكريمة المشرِّفة..

لقد دخل الرجل السوق وخرج منها وكلنا كذلك لنا سوق ندخلها وإننا خارجون منها و لابد.. لكن بماذا ندخل إليها وبماذا نخرج منها ؟

هذا هو الفاصل الخطير بين شعور وشعور.. شعور رجل عظيم حازم مُتوَقّدِ الإرادة قد التهبت القدرة فى صدره وانتفضت الحماسة فى خلَجاته فأصبح عظيما فى سوق العظماء، وشعور رجل قد آثر الكسلَ على العمل والقعودَ على الحركة و البذل والفتورَ على

النشاط والسعي.. قد ماتت القدرة بداخله، وانطفأت الإرادة فى جوفه فصار لئيما سفيها من سفهاء الحياة ورعناءها.

إن الرجل قد دخل السوق ومعه قطع من الجبن وخرج منها وهو يملك الدنيا كلها.. بدأ من الصفر فحوله إلى أرقام خيالية صعبةعصية على العدِّ والإحصاء حتى صار من أغنى أغنياء الدنيا ومن أثرى أثرياء العالم.

فهلَّا أردت أن تكون مثله أو ُمقارباً له فى تلك السوق التي قد اخترت لنفسك وارتضيت أن تجول فيها وتخوض غاديا رائحا ممسيا مصبحا.

أقولها لك:

ابدأ بما تملك ومن حيث تقف وبما تُجيدُ... حتى تحصل على ما تريدُ.

لكلِّ سلعةٍ ثمنٌ

البداية من التغير

إن أول طريق العظماء يبدأ من التغير والتحول عن الشر إلى الخير، وعن الخمول إلى العمل، وعن الخوض فى دروب الفشل إلى تذليل النفس على خوض دروب النجاح.

ومن ثمَّ تكمن العظمةُ في النفوس مكان الخسة وتستقرُ القيمة مكان الضَّعة والهوان ويلتقي القدرُ بالعزائم الشِّداد الثِّقال... حيث لا ندمَ ولا بكاءَ ولا عويلَ على ما سبق العنت في تحصيله والضنى في جلبه واحتواءه ومكوثه في منزل العزة من الخير والبر والتفوق والعلاء وإنَّما على غيرها يكون الدمعُ الغزير السيّال.. على لحظات العمر الثمينة التى ذهبت أدراج الرِّياح وولَّت هذراً وإسفافاً ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفرق بين التغير والتغيير :

أولا : من حيث الفعلُ :

فالتغير يتمثل في تغيير المرء لذاته وتحويلها من الأسوء الى الأحسن ومن التأخر الى التقدم بينما التغيير هو هذا الفعلُ ايضا لكن مع الغير.

ثانيا : من حيث أجناسُ الفعل.

فالتغير يُمثِّل تحوّلا عن شيء إلى نقيضه وهو على نوعين

تحول من الشر إلى الخير

تحول من الخير إلى الشر.

أما التغيير : فإنه يمثل تحولا من شيء الى شيء مع اتحاد الجنس، أو التنقل بين أفراد الجنس الواحد كالتنقل بين أفراد الطاعات من ذكر إلى صلاة إلى صوم إلى حج فكلها فى إطار الطاعات

وكالتنقل بين أفراد المعاصي من سرقة إلى كذب إلى غش إلى غدر فكلها تحت جنس المعصية.

وكما سبق ذكره أن التغير يكون من حالة إلى أخرى.

والله عز وجل حضَّ عباده عليه حضًّا وذلك فى آية غرَّاء تحمل

في ثناياها كلَّ دلائل العزِّ إن عُمل إليه وكل دلائل الذل إن عُمل إليه كذلك.

فهذه الآية تحمل التبشير لمن غيَّر حال نفسه من الإساءة الى الإحسان، وتحمَّل الإنذار لمن غير حالها من الإحسان الى العصيان فإذا كان العبد لديه نعمة فأهملها وأغفل شكرها حوّلها الله عنه وابتلاه بنقصها أو منعها وتلك مصيبة لا يحوِّلها عنه إلا إذا عاد إليه شاكرا له طالبا إياها في ذل وإخبات وخضوع لعله يتكرَّم عليه بإعادتها وردِّها إليه..ألا وهي قولُه تعالى :

" إنَّ اللّه لا يُغيِّر ما بقَوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم "

وإنه لمحال استحالة كبرى أن يكون تغيُّراً ما إلى الهدى من الضلال والعز من الذل والرشاد من الغواية إلا بعون الله وتوفيقه وتمكينه وإرشَاده، وبدونها يظلُّ المرء في تِيه وغِواية وضَلال وعمىً.

الحاجة إلى التَّغَيُّر والتَّغيِير

إن الحاجة ماسَّة ومُلحَّة في أمر التغير والتغيير على صنوف الناس وألوانهم فإنهم مذ بدايتهم ونزولهم إلى الأرض أبناءُ اختلافٍ ومُضادَّةٍ وعنادٍ "ولا يزالون مختلفين "

ولما كان التغاير والتنافر طريقةً بديهيةً في الحياة الدنيا كان من المُحتَّم أن الجميع يحتاج الى تغيُّر في ذاته وتغيير لذوات الآخرين.

وإذا كان المرادُ هو التغيرَ المتكاملَ على جميع الأصعدة الحياتية لزم لذلك أن يكون هذا التغير شاملا لكل مناحي الحياة من حيث العلاقةُ بين العبد وربِّه وبينه وبين نفسه وبينه وبين النّاس.

أولا : تغير الذنب.

إن النَّفس البشرية نفسٌ مطبوعةٌ على حبِّ الشَّهوات الدُّنيوية مما زُيّن للناس حُبُّه " زُيِّن للنَّاس حب الشهوات من النساء والبنينَ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة....."

فكل هذه المذكورات أمور زُينت للنُّفوس أن تُحبها وتتلهفَ

عليها بل يمكن أن تهون الحياة عليها بدونها أو حتى بنُقصان شيءٍ منها.

وهذا الحب ليس مذموما طالما أنه ليس مُلهيا للعبد عن طاعة ربه ومولاه والسعي في محبته ومرضاته أمَّا حينما ينشغل المرء بذلك المُزين له عن الذي هو مطلوب له ومخلوق لأجله

أو أن يتعجَّل ابتغاء هذه الزينة الدنيوية بطريق جائر مُظلم قاتم فهنا يكمن الذمُ والنُّكران ويبدو العقاب بأسواطه اللَّاذعة إلَّم تكن هنالك رجعة تمنع مواقعة هذه العقوبات الحاسمة الرادعة العادلة.

فكان من دأب أهل العظمة وأرباب الهمَّة أن يلجأوا إلى المُطالبة المُستكينة للعفو والغفران والمرحمة الربانية الفسيحة.. وما كان لهم من سبيل إلى ذلك المبتغى إلا بطرقهم بأنامل الندم على أبواب التوبة والرجوع الى الربِّ العلى القدير..

وذلك مهما تعاظم الذنب وتفاقم الإثم طالما دنت المقارفة عن الشرك الأكبر أو الكفر بالله العظيم " **إنَّ الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء** " وكل من دنى إثمه عن الشرك الأكبر بالله جل جلاله فهو بإذنه داخل في مشيئته هذه.. وذلك أدعى للاستبشار بالقَبول والمنِّ الإلهي الأسمى والأجل.

ثم إنَّ الله سبحانه فتح باب التوبة على مِصراعيه ولم يكن ليقنِّط أحداً من رحمته رغب صادقاً في رحمة ربِّه وغفرانه.

فتح الباب لمن اشتدت وطأة المعاصي على إيمانه وكادت تفتك به وتدرب به دُروب اليأس والقنوط وتَطرق به طُرُقَ المذلَّة والأسى.. فمن جليل رحمته، وعظيم منته أن أنزل في محكم كتابه آية الأمل وإحسان الرجاء..

" قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنَّ الله يغفر الذنوب جميعا إنَّه هو الغفور الرحيم "

فبين لهم أنهم مهما تدنَّسوا بالذنوب وإن جلَّت إلا أنَّهم لا زالوا يحملون شرف العبودية له والمحبة والإذعان، ثم أمرهم أمرا حاسماً رحيماً ألَّا يقنطوا و ألَّا يعتري نفوسَهم اليأسُ من جلال رحمته، وجمال منته التي عمَّ بها من أناب اليه ورجع.. وذكَّرهم ذكرا يؤكِّد فيه ما أمرهم به وحضَّهم عليه بأنَّه وليس غيرَه من خصَّ نفسه بمغفرة ذنوب عباده الصادقين اللُّجأ إليه وبرحمته إياهم مهما جنوا نصرة لهم على عدوه وعدوهم وإمدادا لهم بشرف محبته ومُنِيفُ وَلايته.

فهو سبحانه يُنادي كلَّ عبد أسرف على نفسه نداءَ رحمةٍ وشفقةٍ

إرادةً منه لسلامتهم ونجاتهم وأمنهم سبحانه ينزل كل ليلة إلى سماء الدُّنيا نُزولاً يليق بجلاله وعظمته فينادي هل من مُستغفر فأغفرُ له..

ولقد ذكر النَّبيُ صلّى الله عليه وسلَّم أنَّه من قال.. أستغفِر الله العظِيمَ الذى لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوبُ إليه.. ثلاث مراتَ.. غُفرتَ ذنوبه.. وكذا من قال سبحان الله وبحمده مائة مرة وغير ذلك من الذكر الكثير مما يفتح للعبد بابَ الأمل مرّة أُخرى و ألَّا يسُدَّ أبوابَ فضله عن عباده بل يفتح لهم كلَّ أبواب النعيم حتى يتسنَّى لهم التغيّرُ دائماً من الأسوأ إلى الأفضل ومن الأقبح إلى الأجمل ومن الجحيم والضنك إلى النعيم والراحة.

فطوبى لمن وجد في صحيفته استغفارا كثيرا.

فهذا سيد البشرية وإمام البرية كان يستغفر الله في اليوم أكثر من سبعينَ مرةٍ.. وكان يقول " رب اغفر لي وتب عليَ إنك أنتَ التواب الرحيم مائة مرةٍ قبل أن يقوم من مجلسه "

والله تعالى يقول لإبليس اللَّعين " وعزَّتِي لأغفرنَّ لهم ما داموا يستغفرونني "

فهو سبحانه من جزيل رحمته وصميم رأفته فتح لعباده باب

الحُب والملاذ ليسعوا جادِّين في تغيُّر نفوسهم إلى الأجمل و الأفضل وذلك بلا إغلاقٍ ولا ردٍّ لسبق علمه أن العباد ضِعافٌ لا يصمدون طويلاً في طريقٍ طاعته والإخبات إليه وأنهم دائموا الزَّلات والعثرات وأن الشيطان قد بات لهم على ناصية كل طريق يؤزُّهم إليه أزَّا.. يقودهم في غير ملل ولا كللٍ فقد قالها مُصرًّا مؤكِّدا

" لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين "

هؤلاء المخلَصون هم الأوَّابون الرجَّاعون إلى عفو الله ومغفرته ورحماته، وقد استثناهم الشَّيطان من أمر غِواياته وشرِّ ضلالته، فإنَّه علم أنَّ هنالك ثلةً مُؤمنة لا يغلبها القنوط ولا تزعزعها الوساوس عن منهج الحقِّ ودربه القَويم ولا هواجسُ الغواية عن شارة الصدق واليقين.

فكيف أخلصوا وتخلَّصوا من كيد الشيطان و سُوء مكره ؟ أبمهاودته أم بمعاداته ومحادَّته ؟

لقد علموه عدواً لدوداً وعرفوه ماكراً خبيثاً فأعدُّوا له عُدَّة التوَّابين ورمَوه بسهام الأوَّابين فأصابوا منه كل مُصاب ونالوا منه أيَّما نيلٍ.

إنَّ هؤلاء المخلصين لم يُصبحوا بين عشيّة وضُحاها من هذا

الصِّنف العزيز الغالي بل لطالما زلُّوا وأخطأوا أخطاءً جِساما ولطالما تابوا ثم عادوا، ولكم توالت زلَّاتُهم وتواترت أوباتُهم إلى أن استقر بهم الأمر إلى أنوار التغير الحقيقي.. إلى سلوك طريق الاستقامة وانتهاج منهاج السلامة.

والله عز وجل سمَّى نفسه التَّواب ليبينَ لعباده أن هذا الاسم من أجل ألا يملُّوا العودة إلى رب رحيم رؤوف بهم أرحمُ بهم سبحانه من أنفسهم وآبائهم بل وأُمهاتِهم..

فهلَّا عُدنا إليه وتحوَّلنا عن طريق الغيِّ والضَّلال إلى طريق الضيِّ والكمال.

وتالله ما حلَّت بنا المصائبُ العِظامُ والدَّواهي الكبارُ إلا من كَسب أيدينا واقترافها للآثام والأوزار من الغُدوة إلى الرَّواح، وإنه لن يَكون الخيرُ ولن يدوم الرخاءُ ولن تذوق النفوس الأمن إلا بعودة صادقة سابقة إلى طاعة الله سبحانه وملازمتِها حتى يحينَ الخروج من هذه الدار.

إن المكوث في رحاب الذنب لهو السببُ الأوّلُ في إخفاقات المرء وتماديه في مراحل الفشل والتنكُّب عن طريق الناجحين النُّبغاء.. وإن التحول عنه ليُورث الإنسان ثقة في نفسه وعزة في كيانه كلِّه

وهذا كفيلٌ للمرء أن يأخذ بزمام أمره إلى ما فيه الخير.. وخطامِ شئونه إلى النجاح والتَّفوُّق والإبداع.

لذا إذا ما دقَّق النظر وجد أنَّ العظماء لا أقول تخلو حياتهم من الذنوب والخطايا بل إنَّهم يقترفون منها ويتركون وليست هى الأصلَ الذى بُنيت عليه حياتهم وترسَّخت عليه قيمُهم بل هي طارئ لا أكثر هيمن عليهم بعض الوقت لكنّهم استطاعوا بعون الله أن يتغلّبوا عليه وينسلُّوا منه عائدين إلى باحة الرُّشد والقيم و التفوق والاقتدار.. جادّين بعد هزل سائرين بعد توقُّف..عالين بعد سفول و دُنوٍّ.. طموحين عقب سفسفة وانذهال عن صراط المجد وآيات التألُّق والازدهار.

فسعَوا وما قنَطوا وبنَوا وما يئسوا فكن على هديهم وسر على دربهم تصل إلى حيث بلغوا من العزَّة والقدر والرِّفعة والجلَال.

تغيُّر الكسلِ

" الكسل رأس كلِّ ذلَّة وأصل كل علَّة فلا قدر لكسول ولا فضل لمعلول.. إذ به تطول المسافات وتكثر الآفات وتقبح الصفات وهو مذبحة الفضائل وعاصفة المواهب وغذاء المتاعب وراية الندامة وآية الحسرة ورَدهة الخِذلان وقاصفة الجميل "

بكل نقص ذو التكاسل ميتلى

ما شمخ يوما في السماء أو على

بل إنه في بيت ذل ماكثٌ

ثوب المذلة قد كساه وأُسدِلا

وإننى لأعجب كل العجب لأناس خلو عن الأدب يطلبون النجاح ويرغبون الرِّفعة وهم نائمون على أسرَّة وثيرة لدنة يلتحفون الكسل ويهجرون العمل.. يتعمقُون غوصا في أحلام يقظة زائفة وآمال مجردة باطلة ومستقبل مغبَّر دحضٍ راعنٍ.

والكسل هو التوقُّف عن أمر ذي بالٍ طلبا للراحة والدَّعة مع توافر

أسباب النهوض لإنجازه.. أو عدم النهوض إليه أصلاً.

تجد إنساناً قد ملأ حياته أعمالًا طيبة صالحة رائعة وبعد مدّة ليست بالكبيرة من عمره يتوقف عن مسيرته في هذه الأعمال الجليلة العظيمة.. ليس لشيء سوى أنَّه لم يستَطع أن يُهيمن على رغبات نفسه مقوِّضا لها عن أن تكسل وتحمل لتخوض في هذه الأعمال المباركة مكملة إياها مُتمَّة لها.. وذلك بابٌ واسعٌ جدًّا بل أصلٌ أصيل من أصول الفشل والإخفاق.

ومعروف أن المرء يمثِّل لبنة هامة في بناء مجتمعه وأمته ومتى ما تكاسل عن أداء واجبه ورضي بالقعود مع الرَّاضين به خائرةً عزيمتُه واهنةً قدرتُه.. كان ذلك خطرا عتيدا عليه وعلى مجتمعه برُمَّته.

ويا ليت هذا الكسلَ يناله وحده بل إنّ أثره يتعدَّى فئة كبيرة من أبناء هذا العالم يَضيع معه حقها وتنزلق أقدامُها في مزالق البؤس والشَّقاء.

إذن.. فمن جراء هذا العمل الخبيث المُجترَم في حقِّ الإنسانية جمعاء لزم أن يُوضع حدٌّ له يحد من تبرثُنه وتفشِّيه.. ولن نستطيع التغلُّب عليه والتغيُر عنه والتحوّل إلى العمل والجِدِّ إلا بمَلءِ

النُّفوس بالأمل.

والأمل هذا ثلاث..

أملٌ يجعلك تبدأ..

وذلك يكون بتجاهل إخفاقات الماضي مع المُضي بثقة في الذات على إتمام العمل في هذه المرّة.. ومحو أسباب الكسل التى أسبغت النَّفس في المِرار السابقات حتى لا تسنحَ لها فرصُ التجدُّد والولوج إليها مرةً أخرى.

وأملٌ يجعلك تستمر..

وهذا مُتمِّم لضرب البداية السابقة، وأفضل ما يكون لاجتلابه واحتيازه مخادعةُ النفس ومُخاتلتُها فإنَّه من انفع ما يكون للتغلُّب على الكسل والقعود والخمول أن يخاتل المرء نفسه.. حتى تنقضي الأيام والليالي وقد بلغ ما أراد وعاد بها رامه مبتهجا منتشيا.. يخاتلها بناموس أنَّ " **ألم الأمس لا يُحَس به اليوم وألمَ اليوم لا يُحَس به غداً** " وأن الأيام التي انقضت وولَّت مُدبرة لا رجعة لها.. فأين ولَّى ألمُها وغاب عناؤها ؟!

وأنَّ اليوم سيمضي كما مضت الأيام الخوالي السابقاتُ له مُضيا بآلامه وعناءاته ليس يبقى له بعدها إلا المجدُ الطَّريف الذى بَدعه

وأحدثه.

وهكذا يظل المرء مع نفسه على هذه الحال، اليومَ تلو الآخر، والليلة تلو الأخرى، مع التماسه لها بعضَ الرَّاحة التي تُقيمها متأهبةً متأثِّلةً لمواصلة السير ومتابعة المُضي وحثِّ الخُطى.. حتى تصلَ الدِّيار، وتحط الرحالَ وتخرجَ الرَّاحة لاستقبالها باشَّةً فرحة مبشِّرةً لها بزوال النَّصب إلى الأبد وبقاء الفوز لها خالدا لا ينمحي لها رسمٌ و لا ينطوي لها تاريخٌ مجيدٌ.

وكم من عظيم خاض هذا الدرب وسلك هذا المسلك مُتَّبعا هذه الخُدعة النابغة المثمرة فعاد بلا ندم.. يرتِّل ألحان فرحته على وتر البهجة والمسرَّة ويُنشد آماله التي تحققت له مالئا بها سمع الزمان بعد ما قد كان علاها غُبار الجَهد والضَّنى في موائمة وانسجام.

وأملٌ يجعلك تصل :

وهذا يكون بتصوُّر التَّمام للفعلِ وتصوُّر التقدير والتقييم لما سينال إثر هذا المشوار الكبير المكتظِّ بالعنت والمشقات.. وتصور أوسمة الشرف التي ستناطُ بصدره وترفعُ هامته شامخة كالطَّود الرَّاسخ المعلَّى الذي يُعرَج إليه على قدم الصُّعوبة والاحتمال لبلوغ قمته المكلَّلةِ بالتيجان .

إنَّ هذه الآمالَ الثلاثة محتِّمةٌ لعلاج هذا الكسل أنجعَ العلاج وأنفعَه وإذا ما تنصَّل عن واحد منها بقيت من الكسل في وجدان الرجل بقيَّةٌ ولربما نمت فيه وأوغلت متجذرة حتى تُضيِّع كلَّ قدر وتذهبَ بكل ما صنع من قيمة ومكانة مرموقتين.

صاحب الكسل لا يصل

" من لزم الكسلَ ما انتقل ولا وصلَ "

إنَّ المرء ليمتلك بكافة الطُّرق والوسائل أن يُنجز أعماله على أتم وجه وأكمله وأصح مسلك وأعدله، بينما يجتهد في تكسيله وتهويل الأمر لديه شيطانُه وعدوه الأولُ حيث علمُه أنَّ هذا الإنسان ما أنجز هذا العمل كما ينبغي عاد نفعُه عليه وعلى أفراد مجتمعه، وفي هذا إغاظةٌ له أيَّما إغاظة.. فيعمل جاهدا أن يفتِّر نشاطه ويُجهضَ عزمه حتى يصبح فاتر الهمة خامل التقدم فيقعدَ عن ذلك.. وهذا من حيث إقعادُه عن العمل تماما.

ذلك وأنَّ له حيلا أخرى يُكسل بها الإنسانَ عن إنجاز عمله وإدراك مُناه ومن ذلك أن يشغله بغيره عن إدراكه فهو يظن أنه يعمل الصائب النافع وهو يتغلغل في سراديب الخَيبة والخِذلان.

نعم.. هو يعمل لكن ليس هذا هو زمانَ هذا العمل.. فيعمل ويكون كمن لم يعمل.. يتحرك في غير مساره ويبني في غير بنيانه.

وفي ذلك يقول الملك سبحانه عن كيد الشيطان ومكره بهؤلاء

وغيرهم { **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** }

وهل للوقت من شكر كمثل أن يُستغل ويستثمرَ فيما يُنجَزُ به العملُ المرادُ ؟!

فالواجب عليك أيها الساعي في طريق العظمة ألا تكسُل وأن تعلم ان هذه الخَصلة كانت من أبغض الخصال إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم ويبدو ذلك جلياً في أقواله ومنها :

" اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل "

ولا يُستعاذ بالله جل جلاله إلا من شرٍّ محض والكسل لا خير من وراءه يُجنى ولا يُحقِّق المرء من جرَّاءه أملا.. وذلك أنَّ الكسل إذا تمكن من أحد وألفى مرتعا خَصبا أفقده كل ما يملك وأكسبه مالا قيمة له تُذكر باكتسابه واقتنائه.

فلتكن حريصا كلَّ الحرص على زمانك ولتبادر في تغيير ذاتك من هذا الداء اللَّعين المَقيت إلى نشاط يحيي الله به أملا لك قد مات وعزما لك قد ولَّى وشطَّ بعيدا .

إذا ما رُمتَ أن تحوز مجدا

فكن في الحياةَ ذي فتىً مُجِدّا

واعلم بأنَّ ربَّك واسعُ العطا

فلا يُضيِّع بذل باذلٍ جُهدا.

واعلم بأنَّ الرَّجل الفاضل هو من يربأ بنفسه من النَّجد إلى المجد، ومن الكسل إلى الجِد، ومن العدم إلى الوُجد، ومن السّفه إلى الرُّشد.

فما كُتبت الرَّاحة إلا لمن جاهد نفسه جِهاداً كبيراً في كسبها، وما نُزعت الراحةُ إلا عن الذى لزم الفراشَ عمره واستلذ رقاده ووثارته وظل متدثرا بغطاءه حتى ضج في ندمه وحسرته متعمقاً فيها إلى أقصى حد وأبعده.

إنَّ الراحة هى ذلك البلوغ إلى المجد الذى يسعى اليه أرباب الطُّموح من كل فجٍّ وإنَّها لمطمح كلِّ أحد من بر وفاجر ومؤمن وكافر.

لكن هل نيلت الراحةُ إلا بالنَّصب والدَّعةُ إلا بالجهد والتَّعب؟ وهل بدأ التحركَ إلا من لام نفسه لومَ الكبار لنفوسهم على تقصيرها في زمان مضى وولى في لهو ولعب وتخامُل وتخاذل وقد أيقنوا أن

" من نصب اكتسب ومن أراد أن يسعد فلا بد أن ينهض ومن أحب أن

يقود فلا بد أن يُقاد ".. ورأوا الكسل رُؤيةً تليق به وهو بها جدير من عداوته ومناوأته لأهل الخوض في دروب العزة والكرامة والمجد فما صدر إلا عن أمر من السيد الأكبر له ألا وهو الشيطانُ الرجيم لعنات عليه متتاليات من الله عز و جل.

فالكسل جُندي على رأس الجند في كتيبة الشيطان فاحذره يا من له لبٌّ و وَعي.. واعلم أن من الصفات الوثيقة التي يتحلّى بها أربابُ العظمة و أصحابُ الرفعة و الشموخ.. أنَّهم لا يسمحون لأنفسهم أن تحدثهم مجرد حديث بما يبث في جوانحهم أي شعور بالإحباط و التوقف و السكون.. او ما يجتث جذورا تأصلت في أعماق نفوسهم من العزم الماضي و الإرادة النافذة.. وهم على إثر ذلك يتطلعون لغاياتٍ سامقةٍ رفيعة.. ولو لم يكن لجهودهم فعل أن يبلغوها في آنهم الذي يحيونَ.. وهم على قدر عال جدا من الثقة بها أنهم كما بلغوا أمثالها فيما سلف فإنهم بالغون لا محالة يوما في دواخلهم قدرة ترقى بهم نحو ما حدَّدُوا أن يصبوا إليه و يركضوا نحوه غير آبهين بما تبثُّه أنفسهم من خمول و خمود و كسل و قعود عن الفضيلة أن تصنع و عن الجميل أن يّقدَّم على نحو به يرضى الله تعالى عنهم و يُمتدحون به على استحقاق و اقتدار.

فيا صاحب الهمة :

سِر في سرٍّ وأعتق النفس من الأسرِ وحُث السير جهدك وحُضَّ النفسَ علىَ اللِّحاق والإدراك وجاهدَ على الرفعة بكل ما أوتيت من قوة فإذا بلغت الباب فلا تظلَّ واقفا منتظرا أن يُفتح لك بل أدم الطرق فإنما تُفتح الأبواب للراغبين بدوامه.

أدم طرق أبواب العلا ترقى.. لا تبرحن الباب حتى يُفتحن

فلم يدم الطَّرق طارقٌ أبدا.. يصدق منه حتى ينجحن.

ويكفي الكسلَ مذمةً أن تعلم أنه من الصفات الرَّاسخة الَّلازبة في أعماق نُفوس المنافقين

" وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس"

أذمُ صفاتَ المرء في تكاسله .. ففرَّ من كسل به يُجلب الذَّمُ.

لا تصحبنَّ إذا ما كنتَ مُقتدراً .. متكاسلًا فليس بصُحبةٍ غُنمُ.

وعلى الجانب الآخر ترى الكسل من أقبح الصفات عند السادة المتقين الأخيار فهم أرباب المبادرة والمسابقة والمسارعة **"أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون "**

فانظر أخا المجد ما أنتَ راغبه .. فالمجد للمرء العظيم يُتعبُه .

لولا طريقَ المجد فيها شوكها .. لسار كل له في اليُسر يطلبُه.

واعلم يقينا أن :

من لزم الدَّعة رام الضَّعة.

ومن الأسباب التي تُعين المرء على التغلُّب على الكسل .. مصاحبة أرباب الهمم والتدبُّر في سير النُّشطاء أصحاب العزائم المحتدمة والإرادات ذواتِ الأوَار.

ولو قرأت عنهم لعرفت، ولإلى ما استشرفوا إليه استشرفت.

فلو قرأت عن الإمام الشَّعبي رحمه الله وقد قيل له : من أين لك هذا العلمُ كلُّه ؟ قال : بنفي الاعتماد، والسير في البلاد، وصبرٍ كصبر الجماد، وبكورٍ كبكور الغراب ".. لعرفت.

ولو قرأت قول الإمام أحمد رحمه الله : " لم يكن في زمان ابن المبارك احدٌ اطلب للعلم منه، رحل إلى اليمن، وإلى مصر، والشام والبصرة والكوفة، وكان من رُواة العلم، وكان أهل ذاك، كتب عن الكبار والصغار.. لعرفت.

ولو قرأت ما نقله أنسٌ وابنُ سيرين رحمهما الله عن امرأة مسروق رحمة الله عليهما أنها قالت : " كان يصلي حتى تتورَّم قدماه، فربَّما جلست خلفه أبكي مما أراه يصنع بنفسه ".. لعرفت.

ولا شكّ أنَّ قدوته في ذلك هو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

وذلك حينما كان يقوم من الليل حتى تتفطَّر قدماه فتقول له عائشة رضي الله عنها " هوِّن عليك أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر " فيقول بأبي هو و أمي " **أفلا أحب أن أكون عبدا شكورا** ".

فلو نظرت نظرة لبيب لعرفت كيف دأب هؤلاء ومن سواهم من أهل هذه الأمة المباركة حتى بلغوا هذه المنزلة وتلك المكانة السامقة الرَّفيعة.

هؤلاء هم الرعيلُ المبارك الذي تضنُ الحياة بمثلهم إلا من قام على حياضهم فاستقى من منهلهم العذب الرَّقراق ومضى حيث مضوا يبادر ويسارع إلى الخيرات يخطُبها والبركات يطلُبها.

وإنَّه لمن أعجب ما يكون أن ترى قوماً من الناس بلغوا من الحماقة والنزاقة مبلغا كبيرا حيث يفرُّون مما يُقيم لأنفسهم قدراً وقيمة عظيمين.. راضِين بالدون والذِّلة والوَضاعة.. هم حُثالة الناس وأوباشُهم وهم بحقٍّ العالة على غيرهم، وليس العجب إن أبوا ذلك مع عدم مقدرتهم بالفعل عليه، وإنما العجب أنهم يملكون القدرة أن يسموا وقد هجروا السُّمو راغبين عنه وتركوا كل معاني الرِّفعة والعزَّة والشَّرف وقد كانوا من أحقِّ الناس بعدم هجرها لولا عجزُهم الفاضحُ هذا.

و من رام الوصول بغير سعيٍ.. فما للقاعدين و للوصولِ.

والأبلغ فى العجب أنهم يفرُّون من العظمة قدر ما يتلهف عليها المتلهفون.. ولكنَّه فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

" فالقدرة لا تنفع مع القعود والضعف ينفع مع الركوض والذى يتحرك لا تكفيه الحركة إنما ينبغي أن تكون في نصابها الصحيح ومسارها القويم الذى يقود إلى الغاية المرجوَّة، ويحدو صوب العُلا والعَلاء ".

أما الكَسول الذى غيَّب الكسلُ مواهبه، ودنَّى مناصبه و أثنى عنه مكاسبَه.. يرى بأمِّ عينه خيبة كاسحة لآماله وفشلاً ضاربا لأحلامه.

والعجيب فيمن كسل أنه قد ذاق قبلُ شرف التعب والضَّنى ولَمس بأنامل إبداعه جسدَ القدر والقيمة، ولكنه آثر القعود وتعجَّل الراحة، ولم يدَع نفسه بعدها أن يحاول محاولة أو يجول جولة أو يصول صولة عسى أن يُردَّ إليه شرفُه المنبوذ عنه ومجده المأخوذُ منه بعتاد الكسل وجبروته.

ولو حاول لألفى.. بدلا مما ضاع ألفا

لكنه هام الرقاد.. فصار يبك الدمع نزفا.

آخر ما أوصيك به أيها الأخ العزيز أن تؤمن بأن الإنسان

"يستطيع أن يحيا بغير أسباب إذا كان طَموحاً، ولا يستطيع الحياة بها إذا كان كسولا".

فالمرء الطامح إلى المعالي.. التى تدور في خلَده بلا توقُّف ولا توانٍ سيخلق أسبابا يتبلَّغ بها إليها أمَّا المرء الكسول الذى يريد الدَّعة والقُعود فإنه سيميت قوة الأسباب بداخله حتى تُدفن في أغوار كشحه.

فاختر لذاتك ما تودُّ أن تكون.. من كسل يحطِّمها ويهشِّم كل قَدرِ لها، ومن همة عالية بانية تبيت بها عند أعلى نقطة في قُنَّة المجدِ.

تغيُّر الأفكارِ:

"لا شكّ أنَّ الفكر هو الطريق الذى يُصنع لكي يُجتاز إلى ما حث عليه وحض من خير أو شر، فالفكرة بوابة كبرى إلى العظمة أو الخسة أو الضعة أو العزة وكل إنسان لفكره زمام إن أحكمه قاده إلى الغاية الحميدة وإن تركه قاده إلى العيشة النّكيدة"

"فإنّ من ملك زمامه بلغ مرامه ومن أراد مرامه نظر أمامه"

"كم من فكرة وضعت صاحبها في بؤس وشقاء وكم من فكرة وضعت صاحبها في سعة وهناء".

إنَّ الفكرة غذاءُ العبقرية الفذة وهي كذلك غذاء البلادة

والسفالة والانحطاط.. حياة للعقل والنفس والقلب والروح وكذا هى أصل لها في الغَيبة عن عالم الحياة.

أيها البارع :

إنَّ هذه الأفكار البائسة عن الحياة نتاجُ عقل صوَّر كل شيء بصورة القُبح وكساه كِساء البؤس والشقاء وإن هذا لحيف مُظلم وإجحاف مُعتم مذهب لمعنى الحياة وجمالها.

ومن أجل أن تتغير هذه الأفكارُ السقيمة البائسة اليائسة عن الحياة كان لِزاماً على الإنسان أن يتدبر متأملا معاني الحياة التي يحيا لأجلها ولا يتَّسع له مجال في عقله عن جهلها.

وذلك أن يتفهم أنّه لم يعش هباءً ولم يحي جُزافا ولا هملا وإنما خُلق لغاية وطريق، أما الطريق فهو طريق الحياة الشائك المتعرج الذى لا صلاح له ولا انعدال إلا إذا مُهد وذُلِّل مطابقةً لطريق الله عز وجل وموازاة لمنهجه المستقيم سبحانه وتعالى.

لذا فنحن نردِّد دائماً تالين "**اهدنا الصِّراط المُستقيم**" ومن هنا تُنصَب المفاهيم الرَّصينة للمصدر الرئيس الذى خُلقت من أجله تلك النفوس والأرواح.

قال الله تعالى في كتابه "**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** "

فإن علم الإنسان غاية حياته الدُّنيا وما يترتَّب عليها في غايته الكبرى لالتزم لذاته نظام محاسبة دقيقًا ومراقبة عميقًا ولأعلنها من ساعته أن الذي لا بدّ منه هو تغييرُ المفاهيم الذاتية عنده وإن كانت مفاهيمَ حسنةً تُركت كما هي بل زِيدت حُسنا وجَمالا.

إنَّ كلّ انحراف أو استقامةِ في حياة المرء تكون مبنيةً بناءً كاملا على مظانِّه وآراءه ومعتقداته، فالإنسان الواثق في ذاته يرى الحياة ذات جمال ورونق وبهاء، وذلك ألَّا مجال عنده في مكامن عقله وبواعث وجدانه وحنايا قلبه لانبعاث شُكوكه وخبيث هواجسه.. وبالتالي هو ينظر إلى الناس وإلى الحياة بعين المحبة والوداد والسَّلام فلا يتأثرُ بكلمة تثبيط أو إحباطٍ من امرء جهول.. للَيأس في قلبه مكان.. ولا يشغله ما قيل وما سيُقال.

أما هذا الّذي لا يملك ثقة ولو قليلة في نفسه فإنه يتجاوب على الفور مع هواجسها الدنيئة وخواطرها السافلة التي تبثُّها في مناحي فكره وعاطفته فيهيم مع خرافاتها فيصير مذلَّلا لها مقيدةً إياه عن خَوضه غمارَ التَّجارب ومُبادرته في سَاحَات هذه الحياة.. وهو وفق ذلك يرى النَّاس أعداءً لَه مُحَاربين إياه حرباً ضَروسا شرسة مُتَوحِشَة.. ويرى الحياة قاتمةً ذات غَلَس مقوِّضَة لكل بِناء يبتنيه لذاته.

تلك الثِّقةُ وانعدامُها إنَّما نمت كلٌّ واحدة منهما على حدة لاختلاف الظُّنون والأفكار والآراء.

يقول الشيخ الأديب محمد الغزالي رحمه الله :

" كلّ ما يصنعه المرءُ هو نتيجةٌ مباشرةٌ لما يدور في فِكره، فكما أنَّ المرء ينهض على قدميه وينشط ويُنتج بدافع من أفكاره كذلك يمرض ويشقى بدافع من أفكاره أيضا "

إنَّ هذا الوهمَ الذى يحياه وينغمس فيه بعضُ المتهوكين الحمقى من أفكار مُعتمة حالكة عن الحياة أنها عابسة كئيبة، يقف ذلك عائقا يسدُ أمامهم كل طريق يرجى فيه النجاح والنجاة.

ولست أدرى حقيقةً لماذا نغلق أذهاننا وعقولنا الفذَّة التى مُتِّعنا بها ومُيزنا عن سائر المخلوقات على أفكار خبيثة مُنتنة تستطيع وبجدارة أن تقتل كلَّ حُلم سعى صاحبه أن يُمهد له الطريق أعواماً مديدة في مناحي عقله وكيانه.. وتَئد كلَ مُنيةٍ منَّى نفسه بإنجازها وإدراكها حتى تُرى خلقا جديدا باهرا.

لماذا نحبس أنفسنا داخل أفكارٍ لا أصل لها ولا وقوع لشيء منها البتة إلا إذا دعمنا أركانها بانسياحٍ عقولنا معها في كل قطب نصوب قُبالته ؟

هل سرُ ذلك هو الضَّعف الحقيقي الذي يكتنف قدراتنا أم الخوارُ والجبنُ من مُجابهة الجمال في حياتنا ومحاولة أن نكون بشراً رائعين نمُدُّ الحياة بالعز والفَخار ونزف الفرح والمسرَّة إلى غيرنا ممن هالهم الإحباط واليأس ونبثُ مخايل النجاح والترقي إلى نفوسهم ونفوسنا ونكون جميعا أبناء جَلَد وصبر وأسياد قدر وقيمة.

علينا جميعا أن نلتزم منهجَ الُمكاشفة والُمصارحة الذاتية ومعرفة العيوب ودراستها وتحويلها إلى مَيزات نرتقي بها سُلَّم المجد إلى رغباتنا المَرجوّة وطُموحاتنا المنشُودة.

ومع هذه المصارحة لا بد أن يعلم أنَّ

" أكبر العيب التغافل عن العيب "

إنَّ الاعتراف بالتَّقصير هو الباعثُ الأولُ والمقدَّم على عدم المُماداة في صناعته، وهو البداية الدَافعة نحو تَعويض النَّفس عن خسائر هذا التَّقصير الفادِحة الذى شغل منحىً كبيراً منها على مدى الأيامِ والليالي التي اصطَحبته فيها.

لأجل ذلك..

يقول واين داير **" غيِّر أفكارَك تُغيِّر حياتَك "**

إنَّ الرَّجُل هنا قد سَاوى بَين الأفكار التي تَجُوب أذهاننا بالحياة

التي نقوم فيها بفِعالنا، فعنده وهذا هو المنطقُ الصَّحيح أنَّ الفكرة تبني الحياة وتُقيمها أو تَهدمُها وتُقوضها.

أقولُ وبإيجاز أنَّ " الفكرة هي المَعبر الذى يعبر من خلاله إلى النجاح أو الفشل.. إلى السعادة أو التعاسة.. إلى أن تكون شيئا مذكورا أو أن تكون عدما مَهدورا.

يقول الملك جلَّ جلالُه في كتابه بعد أن بيَّن في خِضَم سورة الذاريات أننا لم نُخلق ولم تَدِب الحياة في أوصالنا إلا لأجل أن نجعل كل حركة وسَكَنة وِفقاً لقانون التعبُّد له " **وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون** "

بين الله سبحانه وتعالى بياناً يقطع كل هُراء ويمنع كل هَرطَقة ويقضي على أي سَفسطَة تجوس العقول الماجنة .

" **أفحسبتم أنَّما خلقناكم عَبثا وأنَّكم إلينا لا تُرجعون** " ..

فالخلقُ أبداً لم يُخلقوا عبثاً ولا هملاً وإنّما خلقوا لعمل يقومون به.. خلقوا ليُبدعوا.. خلقوا ليصنعوا.. خلقوا لينتفع بعضُهم من بعض.. خُلقوا ليعملوا وقد تفاوتت ابداعاتهم وصنائعهم طبقا لمعايير قُدراتهم وإمكاناتهم كلٌّ يعمل بحسب ما يقدر عليه باذلاً أقصى ما يمكنه من بذل وعطاء.

وليُعلَم أنَّ أهل النجاح والعظمة في الحياة هم الذين لا يُهدرون لأنفسهم قيمة ولا ينزعون عنها قدراً ولا يُثنون عنها شرفا.. بل هم على يقين أنهم وجدوا ما وجدوه من مَجد ومكانة ورفعة لكفاحهم ونضالهم وجِدِّهم وتعبهم.. وأن هذه الدنيا مهما طالت فهي فانية لا محالة ومهما حسنت فهى قبيحة دانية والذى يتبنَّى هذه الأفكارَ يستطيع أن يُقدِّم الروائع بعزمه المُتَّقد وأن يصنع شيئا يُذكر من خلاله وينتفع غيرُه به بعد رحيله.

هو الذى يستطيع أن يُنجز في حياته مالا يستطيع غيرُه إنجازَه من الذين عشَّشت في نفوسهم أفكارُ السُّوء والخيبة والوَضاعة والذين هم على شفا إخفاقٍ ذريع وانهيار كامل مروِّع لحياتهم.

فالحريُ بنا أن نلتمس لحياتنا الغالية أفكارا نافعةً تنفعنا وتنفع غيرَنا.. مانعةً تمنع نفوسنا عن أن يتسلَّل إليها اليأسُ ولو خُطوة واحدةً..نستطيع أن نُبارز بها تلك الأفكارَ الضَّارية المُدمِّرة وأن نوقن أنَّ النَّجاح أقربُ ما يكون إلينا إذا تغيَّر الفكرُ وتبدل صَوب الأحسن والأفضل.. وأبعد ما يكون إذا تغير الفكر وتبدل صوب الأسوء حيث التشاؤمُ واليأسُ والإحباطُ.

فالعقل يستطيع أن يُقدِّم إبداعاً ونُبوغا عند تواجد الأمل والتَّفاؤل أضعافَ ما يُقَدَّمه عندما تُحيطُ به هالةٌ سوداويةٌ تحمل في

أكنافها اليأسَ والتشاؤمَ والإحباطَ.

فهيّا بنا.. نقدِّم للحياة ما تستحقُّه منَّا إليها أن نُقدِّمه.. من حركة وعمل ومغامرة ومراوغة.. حتى نُقدِّم لأنفسنا مَوادَّ صناعتها من خلال ما قدَّمناه في هذه الحياة.

ولنكن على يقين لا ريب فيه أنَّ الحياة جميلةٌ ولكنَّ الفكرَ قبيحٌ، وأنَّها رائعةٌ ولكنَّ الفكر خبيثٌ، وأنَّها مُنيرة ولكن الفكر معتم، وأنَّها باسمةٌ ولكنَّ الفكر واجمٌ عَبُوس.

وسلامٌ من الله على الذين يريدون صادقين إيجادَ حياةٍ جميلةٍ رائعةٍ بإبدالِ أفكارَهم ونَظراتهم بالرَّوعة والجمال والسُّمُو.

إنَّ كلَّ أحد لا بُد له أن يُعاني من نقص في هذه الجوانب الثلاثة التي تعتمد عليها الحياة اعتمادا كبيراً.. وتتوافق معها عظمة كل إنسان بمقدار يتناسب وإياها.. والذكي اللبيب من نقَّب عن عيبه أين ثم بادر إليه مسرعا يلتمس له النَّفي أوالتَّصويب أوالتَّغيير.. قبل ألا تكون هنالك فُرصة تسنحُ له أن يخوض هذا المضمار الذي قرر خوضه و تَجوُّزه.

فالمُبادرة قبل المُغادرة والتقديمُ قبل التكريم.

فالتمس بنفسك عيبَها.. أصلحه تُدرك طِبَّها.

التَّغيُّر من الجُزئية إلى الكلية :

إنَّ الإنسان العاقلَ اللَّبيب حينما يَروم بصدق أن يتغيَّر يبدأُ هذا الطريقَ جُزءً جُزءً وخُطوة خُطوة فما أن يتغيرَ المرء في مجالٍ واحد في حياته من الأسوء إلى الأفضل أو من الأفضل إلى الأسوء إلا وينقله ذلك بلا شك إلى أن يأخذ الأهبة لتغير سائر المجالات التي تتعلق بهذا الأمر الذى قد اجتازه تغييرا وتحويلا في المسار الذي وجَّه الدفة إليه.

" فرُبَّ نفعٍ جرَّ نفعا وضَر جر ضَرّا "

أما عن الذى تغيّر من الأفضل إلى الأسوء فهذا خانته نفسه وأغرته إغراءً عظيما فنبست إليه أن تغير في هذه الناحية فقط وهو مُصغ إليها سمَّاع لمكرها غير منكر عليها .. ولا يدري خبثها ولؤمها في أنها إنما تجتره إلى الأعمق و الأغور في حالة السوء تلك التي ابتدأها من حينه فما أن يكتمل جزءٌ من الأجزاء سوءً إلَّا ودعته لفساد ما وراءه من الأجزاء الفاضلة الأخرى.. وهكذا جزءٌ تلو جزءٍ حتى ينفضَّ من عَيثه وإفساده وقد خسر كل شيء وصار يرعى مع الهمل

والحُثالة وقد أصبح حَصَلاً لا قدر له يذكر ولا قيمةَ له تُؤثر..

بينا الذي تغيّر من الأسوء إلى الأفضل، تراه وكم عانى وتلحظُه وكم نصب وجد واجتهد وجاهد نفسه حتى أثبت جزءا في اكتمال فضله وتألَّم وعانى ثانية في جزء آخر وآخر إلى أن انتهى من دائرة عيوبه فأصلحها عن بكرة أبيها وعاد بهيجا مسرورا يندم على كل لحظة عاشها في ظلام السوء وكل هُنَيَّة قضاها في حلاكة البعد عن هذه العظمة وتلك النشوة والغبطة.

ألا فليُعلم أنّ طريق الهبوط أسهلُ ما يكون وطريقَ الهدم والهدِّ أيسرُ ما يمكن والإنسان دائما يهبطُ بلا معاناة بيد أن هذا الهبوط يحمل من الخطر والإرهاق بداخله ما لا اتضاح له ولا بيان فياهوله وعَرامته مما يتربص بهذا القاعد عن التسلق و التزلف إلى العلياء مطلبا و مطمعا.

حتى يُفاجأ به صاحبُه فيصعقَ من هوله وهلعه لقاء الدواهي والمصائب التي أقامت في صَحن داره وضمَّت كل أركان حياته فاجتُثَّت شجرتها من فوق الأرض فأصبحت بلا قرار يدعمُها ولا أساس يرسِّخُها و يوطِّدُها **"فأصبحت كالصَّريم"**.

إنَّ طريق الصعود الذي يُستهلُّ بالتغيُّر طريقٌ شاق وأي مشقة..

فكل خطوة تُجتاز فيه تكلف عناءً وكدحا وكدًّا كِبارا.. لكن يا لها من لذَّةٍ غامرة ونشوة وافرة عندما يَثبت له أنَّه نجح و بجدارة في كل رواق من أروقة حياته أن يغيِّرها لما هو مُرض و متقبّل .

إنَّه طريق المعاناة والألم لكن مغبتُه كريمة وعاقبتُه حميدة مفعمة بالخير و المسرَّة و العزَّة .

لا تكن عادياً..

" العاديون يريدون التغيُر.. والعظماء يحقِّقونه.. والصادقون يثبُتون على الطَّريق "

أقصد بقولي لك لا تكن عادياً.. أي لا تبحث عن التغيّر فقط فأنت حينئذ كمن يتمنى بلا وُجد ويتغنَّى بلا صوت.

أريدك أن تكون أدنى ما تكون في ساح العظماء أن تضع اسمك بينهم وتعيشَ في أجواءهم بأن تسعى بكل ما أوتيت من قوة ودهاء وسداد في رأيك وصواب في قولك لتحقيق ما أردته واقعا من هذا التغيُّر المنشود.

وليس يثبت على الطريق الذي جادَّته العظمةُ إلَّا هؤلاء الذين صَدقوا في مطلبهم فقاوموا كل ما يمكن أن يُثنيهم عن عزائمهم ويَزويهم عن تشبُّثهم بالإنجازات التي قدَّموها لذا كان حبيبنا صلى الله عليه وسلم دائمَ القول في دعاءه " **اللهم إني أسألك الثَّباتَ في الأمر والعزيمةَ على الرُّشد** "

ويبين لنا من ذلك أن كل عبد يفتقر في طريقه الذي هُدي إليه

وثابر في سيره على جادَّته إلى تثبيت الله وتقويمه و تسديده فلا أحد يستطيع أن يثبت بلا تثبيت منه وهذا من لوازم قوله تعالى " **إياك نعبد وإياك نستعين** ".

كيف يكون التَّغيُّر..

إنَّ الكثيرين ينشدون التغير ويرومون الحياة الهانئة الناجحة ويريدون صادقين عِيشة طيّبة كريمة.. لكن كيف ذلك ؟

وما هي الخطوات الجادَّةُ التي ينبغي أن تُؤخذ في هذا الصدد العظيم ؟

إعلم أنه لأجل التغير لا بد أن يعُلم.. أين الخلل ثم يُبحث عن أداة إصلاحه، ثم تَعلُّم الإصلاح، ثم القيامُ به بالفعل.

أولاً أين الخللُ

تأمل معي جيدا موقفَ سيدنا حذيفة رضي الله عنه حينما قال : " كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقعَ فيه "

إن هذا الينبوع الحذيفي البارع الذي قل أن يتمثَّل لذي لب.. يسأل نبيَّه عن الشرّ الذي يتغاير مع الطبيعة التي تحدو إليها النفوس العظيمة القادرة على الإبداع.. ولكن حذيفة من فرط خوفه وعنايته

بأمره أن يقع في محظور من محظورات الله عز و جل كان يسأل عن الشر حتى و هو يمارس صنائع الخير..يريد أن يجانب كل الجنابة ما علمه من أفعال الشر.

والمُستنبط من ذلك " أن على الإنسان أن يعلم مواطن الخلل في ذاته ويبادرَ إلى إصلاحها.. فحذيفة رضي الله عنه علم أنَّ نفسه يكمن خللها في أن تقوم بفعل ما يَشينها ويَعيبها إلَّم يكن لها عنه سؤال فبادر بالسؤال صادقاً حتى يُحجم نفسه عنه غير ساقط في أوحاله المُنتنة.

إنَّ الكثير منَّا يُخطئ ويتمادى في خطأه إمَّا جهلا منه أو تعمدا شاءه وأراده.. وفي كلا الحالين.. يُرثى لحاله ويُنعى لأمره، وكلُّ العَجب من حال هذا الذي يعلم إتيانه الخطأَ مرارا وتكرارا ثم لا يسارع لتداركه، ومعالجة نفسه منه.

تجد إنسانا مُصابا إصابة حادَّة بداء الكسل والتقاعس ولكنه لِم يحاول مرة واحدة أن ينزع لإيقافه قبل أن يُحيل حياته دمارا ويبدلَ أمنه اضطرابا ونجاحَه فشلا وإخفاقا.

إنَّها جريمة أكبر من الخطأ أن تَغفلَ عن الخطأ نفسه.. إذ إنَّ ذلك بابٌ فسيح جدًّا يجرُّ لا محالة إلى ارتكاب الأفعال الأخطر والأشدِّ

ضراوةً في الوقت الذي تتغافل فيه عن النهوض بها ومحاولة كبحها وإحجامها.

" فكلَّما عُرف الخلل على عجلٍ.. تَمكن المرءُ من السَّيطرة عليه وإصلاحِه.. وكلّما جُهل العلمُ به وتوانى صاحبُه في معرفته.. تضخَّم واستشرى وتَمكَّن "

وهذا الذي تمكَّن منه الجهل واستحكم لعله يُغفر له جهله ولكن لن يُغفرَ له توانيه وتقاعسُه عن بحثه لمعرفته.

فالواجب المُحتَّم على كل عاقلٍ أريب أن يتعرَّف مواطن خَلله الذي أثار في حياته الفوضى ونشر فيها العبثَ والفساد.

وحالما يتعرفُ ذلك.. فلقد أخذ خطوة حقيقية إلى التغير ولقد حدَّد المسار الصحيح الذي يسلكه في مُقبل أيامه وقت أن حدد الموضع الذي تمكن منه الخلل بدقة ومعرفة وافرة مُستفيضة.

" فأصلحْ العيب أولا فإن إصلاحَه يمثلُ أوَّل حركةٍ نحو إيجابيةِ فعل الخير "

وأنت أيها الأخ العزيز إذا كنت تريد النجاح و الصلاح فلتقع على أخطاء نفسك ولتنهض إليها بالدّواء الناجع لها ولتبحث مجدّاً عن أداة إصلاحها.

ثانيا : البحث عن أداة إصلاحها.

إنَّ لكلِّ عيب رمًّا.. ولكل خطأ تصويب.. ولكل انحراف تصحيح.. ولكل داء دواء.

إنَّ الصَّادق الذي علم الخلل أين.. يلازم البحث عن أداة يُصلح بها هذا الخلل، ويُرَمّم بها تلك الثُّلم التي أحدثتَها الغفلة وأورثتها السهوة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم " **ما أنزل الله داء إلا وجعل له شفاءً**"

فشفاءُ داءك الذي أجهدك موجود لكن يطلب منك أن تديم البحث عنه حتى تُوجده فإلَّم تُلفه فآخر الداء الكي.

وليُفهم هذا جيداً أنَّ معرفة الطريق إلى إصلاح العيب وامتلاك أداته لهو احتياز لنصف السيطرة عليه قبل أن يتفشَّى ويتبرثن ويتوحَّش.

والمبتغي صلاحَ نفسه وإراحةَ ضميره يبحث عن الدواء بلا كلل ولا ملل.. حتى يجده فيبتاعه ولو أن كان بأغلى ثمن فإنَّ نفسه تستحق أن يبذل لها مهجته في سبيل أن تصلحَ له.

وإنَّ من الرجال من يظلُّ يبحث عن دواءٍ لمشكلته فلا يجد.. بعد أن كلَّ وملَّ من البحث والفحص ثم يجده بعد حين بثمن غالٍ فيُزهده ذلك في شراءه إياه .. ولو علم هذا المريضُ أنَّ هذا الدواء وإن كان في نظره خَسًّا وضيعاً وأنَّ ثمنه مكلفٌ باهظٌ إلَّا أنَّه سيعالج له مشكلةً ضخمةً مُفرعة فإن الدواء الذي وجده لا يُقدَّرُ قدرُه بما يشتمل عليه من مادةٍ بل بما أصلحه من عظيم الداء وحقَّقه من جسيم الشفاء.

حقاً إنه دواء لا يُقَدَّر بكل أموال الدنيا فهي إزاءه بخسةٌ زهيدةٌ...

وإن تواجد الدَّواء ولم يُؤخذ أو أنه أُخذ ولم يكن له من أثر فعال فإنما أنت من يكمن فيه سِرّ ذلك وهو أنك لا تريد التغيُّر بصدق وأنَّ الخطوة التي سبقت وهي معرفة الخلل إنما كانت استرضاءً للنفس فقط.

ونظرا لأنَّ هذه الداءات التي تسكن النَّفس من تكاسل وعدم إرادة للتَّغير مشابهةٌ تماما للحالة الحسِّية المرضية التي تقطُن الجسد.. رأيت هذا محلا مناسبا لسوق كلام العلامة ابن القيم الجوزية رحمه الله لعل أثرا يكون له في هذا الصَّدد والله الموفق والمستعان.

فقد قال الإمام في كتابه "الداء والدواء " كلاماً متيعاً نافعاً مُشترطا في فَعَّالية الدواء ونُزول نفعه بموضع الجُرح ومكمن الإعياء أنَّه" **يستدعى قبول المحل وقوة همَّة الفاعل وتأثيره.. فمتى تخلَّف الشفاءُ كان لضعف تأثير الفاعل أو لعدم قبول المُنفعل، أو مانعٍ قويّ فيه يمنع أن ينجح الدواء كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء "**

ثم يُردف قائلاً رحمه الله تعالى " **فإنَّ الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تامٍّ كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول "**.

ويقاس على ذلك النفسُ أيضاً فإنَّها إذا كانت طبيعتها المنحرفة لا تقبل الدواء المستقيم الذي هو أداةُ الإصلاح لها وترميم المفاسد فيها فلن يكون له أثر أبداً ولو أنَّه كُرِّر كلَّ ساعة.

ومن أجل هذا النفع المرجوِّ يلزم له :

١ -البداية الجادَّة لتناول العلاج كلما حان موعدُه والمتابعة لذلك والاستمرار عليه حتى ينال المرء الشفاء التام بحول الله وقوَّته.. والبداية في أي أمر كان تحتاج بَداهةً إلى عزم وقوة ومبادرة.

وحال هذا المُبتدئ كحال المُتلهف وهو في الماء تحثه شهقات الغرق إلى مُنقذ ولو كان هذا المنقذ له أتفهَ الأشياء فلو صادفته

خشبة فاسدة ليست بالقوة التي تحمله تترنَّح بها الأمواج يمنة ويسرة لطار قلبه فرحا، ولاهتز كيانه سرورا.. فإذا به يتعلق بها بشدة ويتمسك أيَّما تمسُّكٍ فهي مركز إنقاذه ورأس نجاته.. و مأمل حياته على وهنها و ضعضعتها.

لذا فالآخذ في علاجه دائمُ التمسك بهذا الأملِ الذي ألفاه حتى تنفتَّح له الآفاق مشرقةً وسط هذه الحياة القاتمة المُعتمة.. ويستطيع أن يتبلَّغ به إلى مراده ومبتغاه.

٢- سؤالُ الله عز و جل أن يجعلِ النفع له في هذا الدواء وأن يضع القبول في نفسه له.. وليكن سؤالُه إياه بذلٍّ وانكسار شديدين حتى ينصلح به الحال وينعدل به الأمر وينجبر به الكسر ولا حول ولا قوة له إلا بالله على إدراكه ذلك.

والدعاء من أجدى ما يكون في كلِّ شأنٍ للإنسان في دنياه أو أخراه.. فكما قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم " الدُّعاء مُخُّ العبادة " فهو عبادة رئيسة في ديننا الحنيف ومن أجل هذه العبادة التي تربط المخلوق بالخالق ربطاً قوياً مُحكماً اتَّصف ربُّنا عزَّ و جلَّ بكل صفة له.. فهو المعز لمن سأله العزة، و الغفور لمن سأله المغفرة، وهو الرحيم لمن استرحمه، والناصر لمن استنصره إلى آخر ذلك من طلب وإجابة .

فهلَّا بصاحب هذا الرجاء الحارِّ في تغيُّره أن يُديم سؤال مولاه عز و جل أن يُغير له حاله من السّيء إلى الأحسن ومن الأضل إلى الأفضل حتى يتحقق فيه قول الله عز و جل " إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم "

وكل هذا الذي يروم العبد من التغيُّر لا يُنال ولا يُحاز إلا بإلحاح الدُّعاء وإمطاره فإنَّ " أنفع الدواء ديمومة الدعاء ".

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول " **لا يردُّ القدر إلا الدُّعاء** " فلو أنَّه قُدِّر للإنسان ألَّا يُصيب من هذا التَّغيُّر شيئاً، ووفِّق إلى الدعاء لردَّ الله سبحانه به ما قُدِّر قبلُ لما قُدِّر بعدُ.

وللبلاء مع الدعاء ثلاثُ مقامات كما قال بذلك ابنُ القيم رحمه الله تعالى :

أن يكون أقوى من البلاء فيدفعَه.

أن يكون أضعف منه فيقوى عليه البلاء فيصابَ به العبد ولكنَّه قد يُخففه وإن كان ضعيفا.

أن يتقاوما ويمنعَ كل واحد منهما صاحبَه.

قال النبي صلى الله عليه وسلم " **إنَّ البلاء لينزل فيلقاه الدُّعاءُ فيعتلجان إلى يوم القيامة** "

فلتوقن أيّها العبد أنَّ ما قُدر لك سيكون لك، وما صرف عنك فلن يكون لك.. فالإصلاح هذا الذي نتحدث عنه يحتاج إلى توفيق إليه من قبل الله عزَّ و جلَّ، فعلى الرَّاغب في إصلاح نفسه أن يستعينه ويديمَ سؤاله ويُطهر قلبه وليتصوَّر ما يتمنّى أن يكون عليه فعلا أمام عينيه كائناً، والله عز و جل كريم متفضِّل لا يُخيِّب من ظنَّ به خيرا أو شرّا " **فليظُنَّ بي ما شاء** ".

فليظنَّ أحدُنا بالله خيرا.. وليكن مُتفائلا أن يجد أسباب الصَّلاح والتَّحول من الفشل إلى النجاح ومن الطَّلاح إلى الصَّلاح ومن الخَيبة إلى الفَلاح وأنَّ الله لن يُضيِّع جُهده في طلبه له ولن يُقوض رغبته عن مأملها ومُرتجاها.

" **وما دام التفاؤلُ هو الحكَمَ في أمرك فثق بأن القضيةَ رابحة** ".

وهاك القولَ العظيمَ الذي يُعلِّمُنا أن نستبشرَ بكل خير وأن نتلمَّح كُلَّ ذرَّة نُور وأن نتطلَّع إلى رؤية غدٍ مُشرق ومُستقبل مُزهر بديع : " **تفاءلوا بالخير تجدوه** "

فكأنَّه يشترط أننا إذا ما تفاءلنا بالخير تحتَّم أن نجده أو نجدَ بعضاً منه وإلم يكن حادثاً ما أردنا فكفانا التفاؤلُ قبله والرضا بعده.. وإن حدث مالم يُتوقع ولم يكن في الحُسبان علمنا أنه القدر العظيم..

فصبرنا واحتسبنا الأجر عند الحقِّ سبحانه وتعالى.

ولا بد من الإيمان بأنَّ " **التفاؤل يولِّد الطَّاقة العازمة بالنَّفس على إيجاد ما نفوءل به** "

ثالثا : تعلُّم الإصلاح :

إنه فنٌّ بديعٌ من فُنون التَّغير وهو من أهم النِّقاط التي يجب أن تُتَّبع حتى لا يضيع الجُهد المبذولُ في معرفة الخَلل، وإيجاد الوسائل التي سبق ذكرها..

إننا هنا نتحدَّث عن الممارسة الفعلية لإجادة فن الإصلاح وتطبيقه بحذافيره على الذات حتى الارتقاء بها من حضيض الفشل إلى سامق النجاح، والتعلُّم هذا لا يكون إلا بسؤال أهل الخبرات والتجارب في الحياة كيف أصلحوا من شؤونهم وكيف استطاعوا أن يُغيروا أحوالهم ويبدِّلوا مسارَهم من جهة إلى جهة أخرى مخالفة لها تماما.

والبحث عن الخطوات التي اتَّبعوها حتى ارتَقوا بأنفسهم إلى هذا التغير الجذري الرائع.. وعلى الباحث أن يعلم أنَّه من الرحمة بالنفس أن يتعلَّم وبإتقان كيف يصلحها ويسمو بها إلى قمَّة العلا ونهاية الفضل فلا يمل من بثِّ الشكوى إلى أهل العلم بأدواء

النفس الذين يستطيعون كشف الستار عن عيوبها ودفع الدواء لتطيب أُبنِها.. وأن يلزم اتِّباع التعاليم في كيفية استخدام الدواء المطلوب لها وإدامة تعاطيه وأن يلتزم بالوقت المحدد لتناوله فيه والمُداومة على أخذه في المدة المحددة له.

وعليه ألَّا يتكبر ويُصر على عدم التَّعلم من غيره كما حدَّثنا الله عز و جل عن أن هناك صَنفا عنيداً من النَّاس المسرفين على أنفسهم والذين لا يُريدون العودة إلى منهجه القويم عناداً ومُكابرة وذلك لزينة الحياة التي أبهرت أبصارهم وتزينت في قلوبهم، وكَبَّلت سواعدهم، وقيَّدت أرجلهم عن التَّقديم في سبيل الله أو السير عليه في جِدٍّ يرتجون رحمته..

فقال عن قوم نوح لما دعاهم إلى الله أعواماً عديدةً " **وأصرُّوا واستكبروا استكباراً** " فيا ليت إصرارهم على الغَي الذى كانوا فيه وامتناعهم عن قبول الهداية الكبرى التي جاءت إليهم على طبق من ذهب كما يُقال.. فيا ليت هذا الإصرارَ أجداهم فتيلاً بل كان الهلاك موعدَهم والبوار مرقدَهم فخرجوا من الحياة بصرخات مُفجعة مُدوية على حياةٍ لا قيمة لها البتة ولا قدر لها في غير أنوار الله سبحانه و تعالى .

ثم يا ليته إصرارٌ لفترة بل تمكَّن الكبر من قلوبهم وترسَّخ العناد

في ألبابهم فكان الطوفان هو المبيد البشري لتلك النفوس المتكبِّرة المتجبِّرة.

إن الأمثلة ثرَّةٌ وفيرة عن أقوام أبوا أن يتَّبعوا أنبياءهم ومن سار على دربهم وعاثوا في الأرض فسادا رافضين التَّغير والتَّحوَل من هذه الحال المعوجَّة القبيحة إلى الحال الحسنة الصحيحة.

وعلى النقيض إذا ما فعل الإنسان ما يدنيه من الفلاح، وترك ما يُبقيه في دائرة الطلاح.. وفَّقه الله سبحانه وتعالى إلى كل خير، وبارك له من بعد جدب وقحط، وذلك قول الله تعالى **" ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والأرض "** وهذا على افتراض أنهم اتَّبعوا منهج السماء الحق وراحوا يُقيمونه في حياتهم ويُخضعونها تحت قانونه.. حينها كانت النتيجة ستكون هي الراحةَ والبركةَ والخيرَ والسعادة في الدَّارين.

" ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون "

فحالةَ إصرارهم يُفعل بهم كما فعل بأشياعهم من قبل وما من أصل انحدرت منه المصائب وانصبت منه المشائن كهذه الذنوب وتلك المعاصي **" ظهر الفسادُ في البرِّ والبحر..."** بماذا ؟؟ **" بما كسبت أيدي الناس "**.

ففساد النفوس والطِّباع والأخلاق وفسادُ البرّ والبحر والجو وكل ما يحيط بنا إنما منبعه مما يقترفه الناس من ذنوب وما يأتونه من جرائر.

ووالله لو صبر الإنسان مدَّة تعلُّمه وطفق يُدرِّب نفسه ويُروِّضها على التعلُّم والصَّلاح لكان الرَّخاءُ يَعُم في أرجاءها ولكانت هذه خطوةً صادقة تُدلِّل على صدق المُريد في التغيُّر والتَّجديد.

إنَّ اللهَّ عز و جلَّ علَّمنا أيها الإخوة الكرام كيف نُعالج أنفسنا علاجاً ناجعاً نافعاً إذا ما ألَّمت بها براثنُ العَياء، وفشت في نواحيها نوازع الهلكة والدَّمار، فقال وبيَّن في كتابه العزيز أنَّه **" وَمَنْ أعرضَ عن ذِكري فإنَّ له معيشةَ ضنكا ونَحشُره يوم القيامةِ أعمى "**..

فما علاجُ هذا الإعراض وهذا الزَّيغ والعزوف عن مسلكه وذكره ؟.

إنَّ العلاج ليس يكون سوى أن نُعرض عن هذا الإعراض، ونَزيغ عن هذا الزَّيغ، ونعَزف عن هذا العُزوف، بتلاوة كتابه ومخافة حسابه وكثرة ذكره ومتابعة عبادته حتى نلتزم بها، ونلتحم بأنوارها إن أردنا حقًّا التغيُّر لقلوبنا ونفوسِنا وعقولِنا وأرواحِنا من الأسوأ إلى الأفضل..

فكم لمن تعلَّق قلبه بالله واستنار بنور الإيمان من راحة في النفس وذكاءٍ في العقل وطُهرٍ في الرُّوح وجمالٍ في كل ما حمل و جميع ما أدَّى.. وذلك أنه رغب عن الهوى إلى الهدى وعن الدنس إلى القبس.

فياهذا الذي يريد صلاحها .. تعلم الإصلاح لها أولا

فليس صلاح بغير صلاحها .. ولا براءٍ لها عنه تحوّلا.

وتذكر دائما أن الله عز و جل **" لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتَّى يُغيّروا ما بأنفسِهم "**

وإليك هذه القصةَ التي تُعبِّرُ عن الصَّبر للتَّعلُّم حتى يكون الإصلاح مرفوعَ الرَّايةِ عالي اللواء.. أرغب منك أن تقرأها مُتأمِّلا متدبّرا فيها عساك تلتقطُ منها ما يُعينك على تغيُّرك أنت بل وتغييرك عالماً بأكمله.. إنَّها قصة **" أوساهير الياباني "** الذَي نقل قوَّة أوروبّا لليابان وقد استطاع أن يُغيِّر موازيين الاقتصاد بالعالم كُلِّه من جرِّاء هذه النَّقلة التي تسبَّب فيها لبذله الغالي و لمنحه الثمين في سبيل غايةٍ سامية رامها و هبَّ إليها .

ويرويها لنا **أوساهير** ذاتُه فيقول وقد بعثته حكومته للدراسة في ألمانيا : " لو أنَّني اتَّبعت نصائح أستاذي الألماني الذي ذهبتُ لأدرس عليه في "جامعة هامبورجِ ". لَمَا وصلَتُ إلى شيءٍ.. كانت حكومتي راسلتني لأدرُس أصولَ الميكانيكا العلمية، وكنت أحلَمُ

بأن أتعلَّم كيف أصنع محركاً صغيراً.. كنت أعرف أنَّ لكلّ صناعةٍ وَحدةً أساسيةً، أو ما يُسمَّى "مُوديل" وهو أساسُ الصناعة كلها... فإذا عرفت كيف تُصنَّع وضعت يدك على سرِّ هذه الصناعة كلها.. وبدلاً من أن يأخذني الأساتذةُ إلى معمل أو مركز تدريب عملي أخذوا يعطونني كُتبا لِأقرأَها وقرأت حتى عرفت نظرية الميكانيكاَ كلَّها ولكنَّني ظللت أَمام المُحرِّك - أياً كانت قوتُه - وكأنّني أقف أمام لُغز ليس له حل .

وفي ذات يوم قرأتُ عن معرضِ مُحركات إيطاليةِ الصُّنع.. كان ذلك أولَ الشهر وكان معي راتبِي فوجدتُّ في المعرض مُحرِّكا قوّة حِصانين ثمنُه يُعادل مَاهيتي كُلَّها.. فأخرجت الرَّاَتب ودفعته وحملت المحرِّك وكان ثقيلا أشد ما يكون، ذهبت إلى حجرتي ووضعته على المِنضَدة وأخذتُ أنظر إليه كأنَّني أنظر إلى تاج رُصِّع بالجوهر، وقلت لنفسي : هذا هو سرُّ قوة اوروبا فلو استطعت أن أصنع مُحرِّكا كهذا لغيرتُ تاريخ اليابان و طفق يَطوف بذهني خاطرٌ يقول : أن هذا المحرِّك يتألَّف من قِطَع ذات أشكال وطبائعَ شتَّى "مَغناطيس كحُدوة الحِصان و أسلاكٌ وأذرعٌ دافعةٌ وعجلاتٌ وتُروسٌ وما إلى ذلك..

" لو أنَّني استطعتُ أن أُفكَّك قِطَع هذا المُحرِّك وأُعيدَ تركيبَها بالطَّريقة

نفسِها الّتي رُكِّبَت بها .. ثم شغّلته فاشتَغل أكونُ قد خَطوتَ خَطوةَ نحو سِرِّ " مُوديل " الصِّناعةَ الأوروبِّيةَ. "

وبحثتُ في أرفُف الكُتُب الّتي عندي حتى عثرتُ على الرُّسومِ الخاصّة بالمُحرِّكات، وأخذتُ ورقاً كثيراً وأتيت بصندوقِ أدواتِ العمل ومضيتُ أعمل.

رسمتُ المُحرِّكَ بعد أن رفعتُ الغطاء الذي يحمل أجزاءَه ثم جعلتُ أفكِّكُه قطعةً قطعةً.. وكُلَّما فكَّكتُ قطعةً رسمتُها على الورقة بغايةِ الدِّقَة، وأعطيتُها رِقماً، وشيئاً فشيئاً فكَّكتُه كُلَّه، ثم أعدتُّ تركيبَه وشغَّلته فاشتغل.. كاد قلبي يقفُ من شدة الفرح.. استغرقت العمليةُ ثلاثَة أيام.. كنت آكل في اليوم وجبةً واحدةً، ولا أُصيبُ من النَّوم إلَّا ما يُمَكِّنني من مُواصلةِ العمل وحملت النبأ إلى رئيس بعثتنا فقال: حسناً ما فعلتَ الآن لا بُدَّ أن أختبرَك.. سآتيك بمُحرِّكَ مُعطوب وعليك أن تفكِّكه وتكتشفَ موضع الخطأ وتصحِّحه وتجعلَ هذا المُحرِّك العاطل يعملُ وكلَّفتني هذه العمليةُ عشرةَ أيام عرفتُ أثناءها مواضعَ الخَلل فقد كانت ثلاثةٌ من قِطع المحرِّك بالِيةً مُتآكلةً صَنعت غيرها بيديّ صنعتُها بالمِطرقة والمِبرد..بعد ذلك قال رئيسُ اللَّجنة: عليك الآن أن تصنعَ القِطع بنفسك، ثم تُرَكِّبَها مُحرِّكاً، ولكي أستطيعَ أن أفعلَ ذلك التحقتُ

بمصانع صَهر الحديد وصهر النُّحاس والأَلومنيوم بدلاً من أن أُعِدَّ رسَالة الدُّكتوراة.. كما أراد منّي أساتذتي الألمانُ وتحولتُ إلى عاملٍ ألبسُ بَذلةً زرقاءَ وأقفُ صاغراً إلى جانب عامل صَهر المعادن مطيعاً أوامره كأنَّه سيدٌ عظيمٌ حتّى كنتُ أخدُمه وقت الأكل مع أنَّني من أسرة " ساموراي ".. ولكنَّني كنت أخدم اليابان وفي سبيل اليابان يهونُ كلُّ شيء.

قضيتُ في هذه الدراساتِ ثماني سنوات كنتُ أعملُ خلالها ما بين عشر إلى خمس عشرة ساعة في اليوم وبعد انتهاء يوم العمل كنت آخذ نوبةَ حراسة وخلالَ اللَّيل كنتُ أراجعُ قواعد كلِّ صناعةٍ على الطبيعةِ وعلم " **الميكادو** " الحاكمُ الياباني بأمري.. فأرسل لي من مالِه الخاصِّ خمسة آلاف جنيها إنجليزياً ذهباً.. اشتريت بها أدوات مصنع محرِّكات كاملةً وآلاتٍ وعندما أردت شحنها إلى اليابان كانت نقودي قد نفدت فوضعت راتبي وكل ما ادخرته وعندما وصلت إلى " نجازاكي " قيل : إن الميكادو يُريد أن يراني.. قلت : لن أستحقَّ مقابلته إلا بعد أن أنشئ مصنع مُحركات كاملاً واستغرق ذلك تسع سنوات.. وفي يوم من الأيام حملت مع مساعدي عشرةَ مُحرِّكات " **صُنع في اليابان** " قطعةً قطعةً، حملناها إلى القصر ودخل الميكادو، فحييناه فابتسم قائلاً : **هذه أعذبُ موسيقى**

سمعتها في حياتي.. صوت محركات يابانية خالصة هكذا ملكنا الموديل وهو سرُّ قوة الغرب " نقلناها إلى اليابان.. ونقلنا قوة أوروبَّا إلى اليابان.. ونقلنا اليابان إلى الغرب ".

وهنا قد انتهت القصةُ الشَّيقة العبقةُ التي خطَّها أوساهير اليابانيُ من باطن أوروبا منتهيا بها في أعماقِ اليابان ناقلاً إياها من السُّفوح إلى القِمم العَوالي.

إنَّها قصةٌ لا أستطيعُ أنْ أُعلِّق عليها بكلام تستحقه إلا أنَّني أقول أنَّ الدَّولة أيّ دولةٍ إذا صنعت عظيما صنعٍ هذا العظيمُ بعدُ دولةً عظيمةً تستطيع أن تخلُق أمثالَه الكثير الكثير.. إنَّها باختصار تضحيةٌ صرفةٌ و بَسالةٌ محضةٌ لا شائبة فيها من شوائب الأثرة أو التَّكاسلَ وعدم النُّهوض الجادِّ لبناء المجدِ الخالدِ الباقي أبداً بدوام الدنيا فلقد ضحَّى أوساهيرُ لو تدبرتَ بماله وطعامه ونومه وبوضعه الاجتماعي الحسَّاس المَرْمُوق .. نسي ماله من منزلة عظيمة ومكانة رفيعة حتى يصنعَ لليابان مكانةً ومنزلةً تصنعُ له مكانةً أكبر مما صنَعه لها.

فلو كان هذا الرجلُ تكاسل عن هذا العمل رغم ما واجهه من معاناةٍ ولاقاه من أسىً لم يكن يتسنى له أن يصنعَ كل ما صنعه من تغيُّرٍ ذاتي وتغيير لمسار أمة بأكملها.

إنَّ أوساهيرَ اليابانيَّ أولُ شيء قام بفعله.. أن تعرَّف أين الخللُ وأين منطقةُ الضَّعف والوهَن ثم بحث غير آلٍ عن أداة إصلاحه فلمَّا وجدها انتقل إلى مرحلةِ تعلُّمها بإتقانٍ بالغ و صبرٍ عريض.

إنَّه الإصرارُ على التَّغير والدَّأَبُ في تحصيل التَّصوِّر والصَّبرِ إلى إنجازِ ما سُعي إليه.

فأين أنتَ من هذا إذا ما كنتَ تريدُ النَّوم ليلاً ونهاراً.. خفاءً و جهاراً.. هيا انهض، وقم يقِظاً من سُباتك، وأرنا إبداعك الذي طالما كُمن في ذاتك واستقر في أحشاءك .. أما آن له أن يخرجَ من بين شفتيك ومن صميم جوانحك ؟.

لقد آن.. لقد آن أن تتغير وتُغيّر وتسعى صالحا مُصلحا عاملا بنَّاءا نافعا

ممارسةَ الإصلاح بالفعل :

وهذا هو المِحكُّ الرَّئيسُ لمن يريد التَّغير الحقيقي ولا يرضى بالدون والضَّعة.

إنَّ ممارسة الإصلاح هي وضعية استبدال للمُغيَّر له بالمغير به.. فنحن الآن في المرحلة الأخيرة وهي التطبيق العمليُّ لمَحلِ الإبدال.. فمثلاً إذا كنت من الذين قد أدمنوا النَّظر إلى مالا يحلُّ النظر إليه من النِّساء.. فإنَّ أولَ ما ينبغي عليك أن تنتبه إليه معرفةُ الخلل والخطرِ الذي يتولَّد عن الانشغال بهذا الفعل، والبحثُ عن أداة

إصلاحه من ذكر ومراقبة وحياءٍ وغير ذلك مما يسوق لإصلاح الخلل الحادث، وتعلمُ إصلاحه بالتوبة الصادقة عنه، أمَّا الممارسة لهذا الإصلاح فتكون بالانتهاء عن الفعل للدخولِ في عملٍ بديلٍ له، وعدمِ الرِّدَّة إليه مرةً أخرى.

إذا كان هذا قد تمَّ على هذا الوجه فليس أمامك إلا أن تُقرِّر قراراً حازماً صارماً بالتوقف عن النَّظر الحرام والانقطاع عنه انقطاعاً نهائيا.

ولْتثقْ أنَّك إذا ما اتَّبعت هذا المنهجَ واقتفيته في كل ناحيةٍ سلبيةٍ في حياتك ترجو لها أن تتغيّر فإنَّك بإذن الله عز و جل ستنالُ التَّغير فيها والتَّحول عنها لا شك في ذلك ودرجةً تلو درجةٍ ستتغيرُ حياتُك بأكملها إلى الأفضل والأحسن والأجمل والأتمِّ.

تَدرُّج التَّغيُّرِ

"إن التغيُّر والتَّغيير ينبغي أن يكونا تدريجيين إلى المرحلة السامية التي يُرجى بلوغُها بجِد، ويُرنى الوصولُ إليها بصدق.. فلكل شيء درجاتٌ في نُموه.. فما من شيء ينمو مرة واحدة ويربو دَفعةً واحدة."

لذا كان اللازمُ على من يَنشُدُ هذا التَّغيُّر أن يتَّبع الخُطوات وأن يفعلَ الأسباب.. أمَّا هذا التَّغير الجذريُ المُفاجئ والارتفاع المذهل الشَّاهقُ حتماً لَيؤولنَّ إلى سُقوطٍ خَطيرٍ مُمعن في خُطورته لا مناصَ من ذلك ولا محيدَ عنه.

وذلك أنَّ المرضَ لا زالت براثنه قائمةً مُتمكنةً في المحلِّ.. فيعودُ إلى أسوء ما كان عليه مُسبقاً.. أمَّا هذا النابغ الذَّكي الواعي فإنه يتتبَّع المرضَ فيتعمَّلُ على محو أثره بمتابعة ومثابرة مُضنية مُكدَّة.. فهذا من يُرجى له البُرء منه وغيرُه سيظل مريضاً أبدا من الذين اقتحموا قاعدة التَّرقي وقانونَ البُلوغ وإن كانوا ظاهرا يرفُلون في ثوب العافية فما يلبثون إلا وتكون مِزقةُ هذا الثوب حادثة بينة مطروحة بين أيديهم يرونها في حسرة ويلمِسونها في حرقة.

ومثالُ ذلك.. الطَّالب إذا كسل طيلة العام وفتَر وتوانى عن مُذاكرته ومُدارسته و مُراجعته ثم جاء قُبيل الامتحان بفترة وجيزة فذاكر وجَد واجتهد.. فهل من المتوقع أن ينال ما يناله من سهر الليالي وهو في مُداومة على مُذاكرة ومُدارسة من أول العام وهو في جد في مجانبة اللَّهو واللَّعب ما كان عليه مُستطيعا .

إنَّ المُتوقَّع له النجاحُ بقدر ما جدَّ واجتهد وحاول انقاذه إلَّم يكن له الباعُ الكبيرُ من الرُّسوب والبقاء في نفس السَّنة الدِّراسية إلى التي تليها، أمَّا من وافق القاعدة وساير القانون وجد واجتهد طيلة العام يكتشف أخطاءً فيُصوِّبها.. يتساءل ويبحث وينقب حتى يهضم الأمرَ الذي نَشَد.

فضلاً عن ما لاقاه من راحةٍ إزاء هذا الذي أجَهد نفسه وعانى معاناة ربَّما لم يُعانها من نظَّم وقته و جزَّأ أوراد مُذاكرته ولم ينلْ إلا ما ناله الطالبُ المتسكع فاترُ العزم راكدُ العزيمة طَوال العام.. فلا ريب أنَّ النجاح بل التَّفوقَ محالفٌ له وأنَّه أقربُ الطُّلاب إلى الفَوَاق والرُّتبة العالية السَّنية.

إنَّ الله عزَّ و جلَّ ضرب لنا أروع الأمثلة وأمتعها في سُنية التدريج والتغيير وذلك أنه غيَّر وبدَّل عاداتٍ جاهليةً كانت متفشيةً ليس بين الكفار وحدهم بل بين جُموع الصحابة رضوان الله عليهم .. فلقد

غير الخمر تلك التي وصفت بأنها أم الخبائث.. إذ تجرّ إلى كل سيء قبيح ذي شناعة وبشاعة.. فتجر إلى القتل والزنا والسرقة والإيذاء بشتّى صُوره وألوانه، وكلِّ فاحش لعين ..

لكن كيف غيرها ؟.. هنا مربطُ الفرس..

لقد بدلها الله عز وجل ليس في يوم ولا يومين بل في مدة هي كافيةٌ للنفوس أن تتهيأ لممارسة التّرك لها.. وتتسنّى موافقةُ التحريم الكامل جاهزيةَ النَّفس لاستقباله في غير عنَت ومشقة وزمجرة وإباء..بل تتفاعل مع هذا القانون الحكيم الصادر من الإله العادل بالرحابة والبشر والأريحية وتعلم أنَّ الله ما حرَّم عليها إلا ما هو ضارٌ بها فكانت المراحل التي ساق الله عزَّ و جلَّ فيها هذا التشريع الرائع الباهر.. ولا عَجب من حكمة الحكيم سبحانه في تربية النفوس على فعل ما يهوى لها بأن تكون هي الهاويةَ له.

وكان المُربِّى من قِبَل هذه الحكمة البالغة الزاهية العلياء ضارباً لنا مثلا مًن أروع وأجلِّ ما يَحتذي به المرء سُلوكا إذا رام تغييرا ناجحا في مجتمعه الذي يعيش فيه ويخشى عليه ضياعا وهلاكا.

فلقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذا رضي الله عنه إلى اليمن، فقال له " **إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أولَ ما تدعوهم إليه**

شهادةُ ألا إله إلا الله فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلواتَ فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أنَّ الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنياءهم فتُردُّ على فقراءهم... "

الشاهد من ذلك كله هو قولُه صلى الله عليه وسلم " **فإن هم أجابوك لذلك** ".. وهو اشتراط الإجابة أن تدعو إلى المسألة التي تليها من دعوة معاذ لهم فليس هناك إجبار، ولا إكراهٌ على دعوة ساقها إليهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم.

إذن فالمغيِّرُ النَّاجح من تبع هذه القاعدةَ الرَّاسخة المتينة من أنَّه لا انحياز إلى العُنف عند سَوق الدعوة إلى الغير أن يغيروا ما بأنفسهم من عقائد ضالةٍ ومعاصي جمةٍ وغواياتٍ مسرَفةٍ غزيرةٍ.. هذا ولا يجوز أبداً أن يستهين المغيِّر بعقول من يدعوهم إلى التغير أو يحتقرَها إذ ذلك لعائد عليه وبالا وعلى دعوته..أن تنكسر شوكتُها وتخمدَ نارها وينطفيء نورها.. ثم يتبدل هذا المدعوُّ إلى شراسة وضراوة لا عهد له بها من قبل، فيستحيلُ حية لا تلدغ أحدا إلا قضت عليه.. بل ويزداد هذا المدعو دعوة إلى ما هو قائمٌ عليه من الشرِّ والفسق والخروج عن الطاعة والسُّكون في المجتمعات سواءٌ كانت مسلمة أم كافرة فيتفشَّى الفسادُ في أرجاء البلاد ليس من الذين دَعوا إليه بدايةً بل إلى الذين لم يكن لديهم الحكمةُ في ضبط النفوس عنه بطريقة زكية نبيلة رفيقة وهَّاجة.

التغييرُ سنةٌ ربَّانيةٌ :

إنَّ الله عزَّ وجلّ خلق الكائنات متنوعةً مختلفة مع بعضها البعض، وغاير بين أنواع الجنس الواحد بل غاير بين أجزاء الشيء الواحد إذ التغيير بين الأشياء يصنع التكامل بينها ويضع التوازن والتناسق في أغوارها ويقيم هذا الكون العظيم في عمارةٍ دائمةٍ ونظامٍ مستديمٍ.

لذا قال الله تعالى **" والله فضَّل بعضَكم على بعضٍ في الرِّزق " وقال " ولا تتمنَّوا ما فضَّل الله به بعضَكم على بعضٍ " وقال " إنَّ في خلق السَّموات والأرض واختلافِ اللَّيل والنَّهار "**

فجعل سُبحانه هذا التباين والتفاوت حتى يُبين كمالَ قُدرته لخلائقه، فينتبهون إليها فيتوكلون عليه ويعتصمون به ويلجأون إليه، وحتى لا تملَّ نفوسُهم من رؤية شيءٍ واحدٍ وسماعها له على وتيرة واحدة، فيكون هناك مغايرةٌ لا بدَّ حتى تستمرَ الحياةُ وتُضفي ألوانَ الجمال والنَّمق في جميع أروقتها.

إنَّ النَّفس الواحدةَ كذا تحتاجُ إلى المُغايرة في طباعها تارةً بين الجدِّ والهزل والمَسير والجري تارةً أخرى.. حتى العبادة فيها من التَّنوَع

ما تحفل به بين صلاة وذكر وتأمُّلٍ وفكرٍ وتلاوةٍ وتسبيحٍ وتكبيرٍ وحمدٍ وتارةً تكون سرًّا وأخرى جهرًا.

إنَّ هذه الطبيعة طبيعةَ المُغايرة والمُفاضلة هي المهيمنةُ على العالم بأسره وكلُّ شيءٍ في الكون يتغيَّر ويتحورُ إلى الأحسنِ والأفضلِ والأكمل فلماذا نحن ثابتون في مكاننا متسمرون في نَطاق ضيقَ متحجرون على وضع واحد لا نتزحزح قيد أنملة.

إنَّ الحركةَ والعملَ والإبداعَ علينا واجبٌ ينبغي أن يُؤدَّى على الوجه الأحسنِ والأتمِّ فإذا ما تغيَّرنا نحن حتماً سيتغيرُ الواقعُ كلُّه من حولنا وستكون الحياة هانئةً مرضيَّةً لا ريب .

" **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى** " والعملُ الصَّالح يحتاج إلى قلب صالح وأنَّى يكون إذا انتفت عنه المجاهدةُ وقيادةُ الذات إلى حُصون الفضل ومراقي العلا.

"وهو مؤمنٌ " يكون الحاصلُ من جرَّاء ذلك، " **فلنُحيينه حياةً طيبةً** " وواقعُ ذلك الإحياءِ الطيب من ممارسة التغير بادئا.

إننا كثيرا ما نتضجَّر ونُزمجر من الواقع وما يقع، ويمتزج الفكر الضال مع العقيدة الفاسدة فينتج ظلامٌ دامسٌ كاس، وزيغٌ بيِّنٌ جليّ، فيروجُ ذلك في نفوسنا حتى تصيرَ بضاعةً رائجةً سائغةً لكل

معتوه مجذوب وإنَّ الحقيقة التي نغفل عنها أو نتغافلُ أنَّ الواقعَ مُحالٌ أن يتغيَّرَ إلا إذا تغيَّرنا من أنفسنا أولاً وأخيراً.

فوائد التغير

رضا الله عز وجل : إن الله عز وجل ليرضى عن العبد الذي انصاع لأوامره وانقاد بقياده وانتصح بنصحه له، وهذا الإنسان الذي سعى جاهدا في سبيل تغيره.. إنما أدى ذلك على أتم وجه وأكمله من حيازة للرضا وعودة بالبشر والتفاؤل بقادم أحلى وأبهى وأجل..

وكذلك الله عز وجل يغضب على من عاند أمره وخالف نصحه له وأتى نهيه و قارف الهوى.. والعبد متى ما شعر برضا الله عنه أضفى بذلك على حياته لونا من البهجة والسرور والفرح فتتهيأ الذات بقوة فرحها إلى خوض مضمار الإبداع والإنتاج الفذ المتيع.. ولو لم يكن من الفوائد إلا هذه الفائدة لكفت.

الرضا عن النفس : فهو أجل ما يمكن أن تنتفع به النفس المتغيرة إذ إنه مفتاح لكل الفوائد والمنافع التي تجيء عقب هذا الرضا.. فالمرء قبل التغير ينظر إلى حياته من جهة التشاؤم واليأس والإحباط بينما تختلف هذه النظرة تماما بعده.. إذ إنها تستحيل أملا ومحبة وتفاؤلا فينتقل انتقالا عفويا من شعور السخط الذي تملكه من حيال فقده

إلى شعور الرضا الذي أضنى نفسه وأجهدها في احتوائه وامتلاكه حتى صار هذا الشعور مستحوذا عليه كاسيا إياه من قبيل ما وجده من جراء تعبه وحرصه على أن يكون شيئا يستحق أن يذكر يوما.

انتهاز الوقت واهتبال الفرص: ومنشأ هذا من الرضا عن النفس وناتج من نواتجها فالذات المتغيرة تقتنص الوقت بعد أن كانت على قدر من التفريط فيه كبير وتحال إلى شدة الحرص على دقات عمرها وملاك أمرها فهي تريد أن تستزيد من اللذة التي وجدتها في ما قدمته من تغير مضى.

قوة الذات وامتلاؤها بالثقة : وذلك أن الإنسان الذي تحول من الكسل إلى النشاط ومن المعصية إلى الطاعة يلحظ لا محالة في ذاته قوة وفي ضميره راحة فيقبل على عمله لا يضره مخذل ولا يبعده عنه من دام به مستهينا فيمضي في طريقه وانشراحة صدره دالة عليه وانبساطة أساريره شارة إليه ينجز أعماله في طريق مستقيم غير معوج وهذا أصل قوته ومرجع عزيمته ومهبط ثقته وهذا على خلاف من تكلف المعاصي وتجشم الذنوب وألفها عكوفا عليها دهره ولم يحدث نفسه بالتغير يوما فتراه لا ثقة له في نفسه ولا قوة له في بدنه ولا عزم لديه في روحه وكيانه.

محبة الناس :

إن الناس وإن كانوا يفعلون الشر هائمين في وديانه غائصين في براثنه.. لا شاغل لهم إلا ما يحط من أقدارهم فهم مع ذلك يحبون من صنع الخير مهما كان صنعه له وسبحه في بحاره وارتقاؤه في درجاته وطبيعة النفس تملي على صاحبها أن يبغض صاحب الكسل ورفيق البرود والتقاعس وأن يحمل المحبة لصاحب النشاط ورفيق العزوف عن التواني والدعة والراحة.. فيدب سائرا إلى القمة بأقصى طاقته ويصب من نوائج عزمه وفضول قوته ومزاد مراسه ولكي يكمل طريقه في جد وإصرار وشجاعة واستبسال بنفس الروح التى ساكنته وبلغت به إلى هذا الحد عليه أن يعبر إلى هؤلاء الذين قضوا أعمارهم في حسده وحسد غيره على جسر من المودة والمسامحة والمداراة.. أو هجر جميل يمتزج باتصال خفيف.

الاستعداد والتأهب لمجابهة أعباء الحياة :

إن روح الأمل التي تجوب في شخص المتغير تمنحه استعدادا وتحملا لكل ما تدنيه الحياة من عقبه من مصائب ودواه جمة وتهديه شدة تتحطم على قسوتها وصلادتها كل العناءات التي تدرها عليه وتلهمه التصدي لها وحكمة المواجهة لها في مرونة وانفعال وموافقة لهذا التصرف الحكيم تختلف النظرة الحياتية لديه وما تلبث إلا أن تكتظ بالسهولة واليسر في مجابهة الصعاب حتى تصير ديدنا له لا

كلفة ولا مشقة عليه فيه.

إن كل هذه الفوائد وتلك المنافع تأخذ بأيدينا نحو الانطلاقة الجامحة في سماء الإبداع والانفلات من أسر النفوس للجوارح التي تندفع والعقول إلى تحقيق مرادات الإنسان وشفع آماله بالكون والوجود.

تلك السماء لا يتسنى لأحد أن يحلق في جوها إلا من تمت له هذه الخصال وكان له بين جنبيه ذات فذة رصينة قوية.

ماذا بعد التغير

إن هذه الذات التي جاهدت وقاومت وتحملت حتى تصل إلى تلكم المرحلة التغيرية الكاملة والثبات عليها لهي ذات جديرة بالتكريم والتتويج بتاج الأصالة والشرف والرفعة.

فإنها لم تكتف بذلك مما بلغته وطالت إليه بل هي دائمة البحث عن كيفية تدعيم هذا التغير وتثبيته وتعزيزه والتشبث بأذنابه حتى ترنو ببصيرتها إلى دوام اكتناف النجاة والأمل لها ولغيرها وتلك أهم الخطوات لإدراك ما نطمح إليه وتحقيق ما نسعى له في جد وإصرار.

إن العظماء أيها الراغب العظمة ليسألون الله تثبيتهم في الدنيا والآخرة فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من هديه دوام سؤاله ربه سبحانه وتعالى الثبات والتمكين والدوام على حال قرة عينه بهذا الدين واستمرارية نصرته له **"فليس المهم أن نلتزم فقط بل أن نصر على الالتزام وأن نثبت عليه ما دامت الأرواح في الأجساد"**.

لقد كان يقول مستعينا بربه سبحانه مستكينا إليه من مشقات

الحياة ومكائدها وعنتها " يا مقلب القلوب.. ثبت قلبي على دينك ".. " **اللهم إني أسألك الثبات في الأمر** "

كل هذا إن كان ينم عن شيء فإنما ينم عن الحرص على هذه الخطوة كل الحرص في مسيرة العظمة التي بدأها العظماء، إذ هي الخطوة الفاصلة بين الذي يتحمل فيواصل وبين الذي يتضعضع فيتراجع.

إن أي قضية نحن بصددها في حياتنا لن تستمر وتنتصر وتعلو إلا حالما نعلوا بأنفسنا إلى أقصى ما تؤدي قدرتنا بنا إليه ونثبت على مبادئنا التي تأسست راسخة في أعماق أفئدتنا ونحقق انتصارا كاسحا عليها يكون لها مرغما و عن هوانها ووضاعتها صادا محجما .. فلا ينبغي أبدا على الذي اتخذ قرارا في نفسه بتغيره إلى الأفضل و الأقوم وثباته عليه أن يتراجع عنه إلى سبيل الحطة والسفالة والذلة والهوان فإن هذا من أعمق الحماقة والسفه .

انظر إلى حال يعقوب عليه السلام عندما أوصى بنيه بالثبات والتمسك بمنهج السماء حتى تنتهي حياتهم في هذه الدنيا وهم على أصل ما أمرهم به " **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** " فلم تك نفوسهم عصية على التمسك بهذه الوصية بل كانت مدركة مسلمة لعلمها بخطورة التزعزع والتخلف عن المنهج السماوي الحنيف.. وهكذا

كل انحراف عن منهج التغير الذي قام به المرء متجها نحو العلا يذهب به إلى غياهب النسيان و ظلمة التخلف.

وهؤلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما قالوا له اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط.. قال : " **الله أكبر.. قلتم والله كما قال أصحاب موسى لموسى " "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون** " فزجرهم ووبخهم صلى الله عليه وسلم على هذا المنطق منهم مع أنهم كانوا حديثي عهد بإسلام وإنما زجرهم لتخوفه عليهم ورحمته بهم وبث الثبات في قلوبهم.

ولا غرو من أحوال هؤلاء الذين صمدوا دفاعا عن عقائدهم وآرائهم حتى استحالت قوانين حياة أبية ينهل من فيضها المدرار كل من رام العزة والتقدم.

وعند الشدائد يبين الرجال وتجلى المعادن ويعلم الصادقون ويماز الخبيث من الطيب.. لذا وصف الله عز وجل تلك الحالة الثابتة المعتصمة بالصدق فقال عن أهل الإيمان " **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** "، فالصدق والثبات على الأمر ميزان الرجولة وميدان الإباء..

فاصمد يا أخي واثبت وثق أن النصر قادم فلا تراجع ولا تسليم

ولا تردد ولا هوان إذ إن التردد جزء من الهزيمة لا يتوافق مع النفوس الأبية العظيمة.

إن الاستقامة على أمر ما تحتاج إلى " **مجاهدة قادرة وعزيمة صابرة وبلية سابرة** ".. لهذا قال تعالى " إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " ووضع ثم هنا لإفادتها التراخي وذلك لما يلاقونه من أذايا وهموم وبلايا وكروب في سبيل الجزاء العظيم والفوز الكريم.

ولما كان عيشهم في الدنيا في خوف وحزن دائمين إذا بالبشرى " **تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا** "، وكانوا مخلصين في حياتهم لا يبتغون منصبا ولا جاها ولا صيتا ولا سمعة وإنما كانوا يريدون وجه الله سبحانه ويريدون جنته فإذا بالبشرى " **وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون** " فما تم لهم ذلك وقرت به أعينهم وما كان ليكون لهم إلا أنهم ثبتوا وأصروا على إدراك المطامح ونيل المطامع الشريفة النبيلة الجليلة..

وفي الأخير على الواحد منا أن يدرك ويعي أن التغير ليس تظاهرا إنما هو أفكار قنع بها فقرت في أصول النفس فبات ينفق لها راحته وفراغه حتى تغير وغير وتبدل وبدل.

خاتمة

إنه ليجدر بي وقد انتهى هذا الكتاب الذي تفحصته أيها القارئ العزيز بعد ترحل بين دفتيه و أرجو الله أن يكون متيعا شيقا نافعا.. أن أنوه نابسا في آذان هؤلاء الذين شيدوا بناء العظمة ووشوه بأرق زينة و أحسن زخرف أن.. من خاض الغمار بلغ الأقمار.. و أن.. من عاش مناضلا مات فاضلا.. و أن.. من صدق فيما ابتغى.. خاض لأجله الوغى.. و أن.. من حسن فكره خلد ذكره.. فما نبغ نابغة و لا علا ذو علاء إلا بإحسان نظرته لنفسه و للناس و للحياة.

سلام الله على العظماء من .. أثبتوا حقًا أنهم عظماء.

وما أقام للعظماء فضلهم .. إلا أنهم عن الهون فاءوا.

فمن عهدهم طلب العلا .. ومن شأنهم ذاك العطاء.